الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩٩

العدد ٢٩٣   الثلاثاء ١٩ من شعبان سنة ١٣٦٣ — ٨ من أغسطس سنة ١٩٤٤   السنة السادسة

فهرس العدد

تركيا وفنلنده

أخذت تركيا تدنو من الحرب ، وفنلنده تحاول أن تبتعد عنها . هذه تعزل رئيسها وتقيم مكانه رئيسا جديدا ، وترتكب ما يشبه ثورة دستورية ، لعلها تستطيع أن تخرج من الحرب ؛ وتلك تجمع أمرها ، وتعد عدتها لكي تقترب من الحرب ، وتصلى بنارها . . . عانت فنلنده ويلات هذه الحرب الضروس ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، ثم رأت اليوم أن قد آن لها أن تنعم بالسلم . ونعمت تركيا خمسة أعوام تنعم بالحياد والسلم ، ثم أرادت اليوم — والحرب مشرفة على نهايتها — أن تخوض غمارها ، وأن تصلى أوارها .

وهكذا تمضى الجمهوريتان — إحداهما فى أقصى الشمال من أوربا ، والأخرى فى أقصى الجنوب — كل منهما تسلك سبيلا يناقض التى تسلكه الأخرى . وبين الدولتين تشابه فى كيانهما ، وموقعهما الجغرافى من روسيا السوفيانية . وبينهما أيضا تشابه ثقافى ، إذ يرجع كل منهما بثقافته إلى أصل تركى أسيوى .

واليوم تسلك الاثنتان مسلكين متناقضين : الواحدة تنشد السلم وتسعى إليه ، والأخرى تدنو من الحرب دنوا شديدا . على أن هذا التناقض ما هو إلا اختلاف شكلى وسطحى ، ولو أمعنا النظر قليلا لألفينا بين المسلكين من التشابه أكثر مما بينهما من الاختلاف . فإن السياسة التى أملت العملين واحدة ، وهى ضرورة الابتعاد عن ألمانيا النازية ، الشرفة فى نظرهما على الهزيمة ، ومحاولة الاقتراب من الأمم المتحدة . وكلاهما قد أرجأ الخطوة الحاسمة غاية الإرجاء ، وظل مصراً على مسلكه الأول إلى أطول مدة ممكنة . حتى إذا خيل إليه أن كفة أحد الفريقين قد باتت واضحة الرجحان ، أدرك أن من اللازم له أن يتودد إلى الفريق المنتصر ، وأن يبتعد ما استطاع الابتعاد عن الفريق الذى ظن أنه منهزم .

لقد كان بوسع فنلنده أن تظل بمعزل عن هذه الحرب ، وأن تنعم بسلم عظيم ينطوى على مكاسب ومغانم ضخمة ؛ وتخرج بعد الحرب سليمة الجسم وسط أقطار جريحة ، موفورة السلامة بين شعوب عانت أشد الويلات فتستطيع أن تستأنف بعد الحرب حياتها الكاملة ، شأنها فى ذلك شأن جارتها السويد ، التى أمكنها أن تحافظ على

حيادها جهد طاقتها ، فلم تخرج عنه إلا بمقدار ما أرغمت عليه ولم تملك دفعه .

وفنلنده ، لو أرادت الحياد لما استطاعت ألمانيا أن تخرجها عنه ، لأن موقعها الجغرافي يجعلها في مأمن تام من كل تأثير نازي ؛ فلا تستطيع ألمانيا أن تقحمها في الحرب رغم إرادتها ، كما أقحمت أقطاراً أخرى مثل هنجاريا ورومانيا وبلغاريا . ولكن فنلنده لم ترد الحياد ، بل دخلت الحرب إلى جانب حليفتها عن رغبة واختيار ، ولاشك أنها كانت تظن في ذلك الوقت أن النصر سيكون في جانب ألمانيا . وهكذا لم تخل الخطة التي سلكتها حكومة فنلنده من عنصر المغامرة . وربما قيل في الدفاع عن سياسة الحرب التي سلكتها حكومة فنلنده ، إنها موتورة ، ولم يكن لها مندوحة من إشهار الحرب على حكومة روسيا وأن تنضم إلى ألمانيا النازية ، لأن روسيا السوفياتية قد سبق لها في العام الأول من الحرب أن شهرت الحرب على فنلنده ، من أجل الحصول على امتيازات إقليمية [illegible] فنلنده أن تمنحها إياها . وهذا من [illegible] كان من الخطأ أن تحصل روسيا على تلك الامتيازات بالعنف ؛ لأن خطة العنف هي الأمر الذي نرجو زواله من الميدان الدولي كله . ولكن لابد أيضاً من التسليم بأن تلك الحرب قد انتهت في أوائل عام ١٩٤٠ ؛ وأن روسيا — برغم انتصارها — لم ترهق فنلنده بصلح شديد القسوة . بل من الإنصاف أن نقول إن شروط الصلح كانت تمتاز بالاعتدال ؛ ولولا ذلك لما أمكن لفنلنده أن تحشد جيشها مرة أخرى لمحاربة روسيا . ولا نريد أن نفسح للتكهن المجال ، وأن نتساءل ماذا تكون شروط الصلح تلك ، لو أن الحرب كانت بين فنلنده وبين دولة مثل ألمانيا النازية ؟ ولكن من الحق أن نقرر أن روسيا كانت معتدلة في مطالبها ، فلم ترد كثيراً في شروط الصلح على ما كانت تطلبه من فنلنده بدون حرب . وبقي لفنلنده جيشها وحكومتها واستقلالها التام ، فانتفعت بهذا كله في شن حرب جديدة للانتقام من جهة ، ولاسترداد قطعة الأرض التي فقدتها من جهة أخرى .

ولئن كان هنالك وجوه يلتمس بها العذر لفنلنده بأن أقحمت نفسها — وهي دولة صغيرة — في حروب الدول الكبيرة ، فإن خطة الحزم كانت تقضي عليها — أيا كانت ميولها ورغباتها — أن تتريث قليلا ، وأن تقف فترة من الزمن موقف المتفرج ، لترى أي فريق يرجى له النصر ، إذن لرأت المقاومة العنيفة التي أبداها الروس في ستالنجراد ، ولرأت أن الغلبة لن تكون لألمانيا بتلك السهولة التي توهمتها الحكومة الفنلندية .

والظاهر أن هنالك حزباً قويا في فنلنده يميل إلى مؤازرة ألمانيا والسير معها إلى النهاية . ولذلك ترددت حكومتها طويلا في الشتاء الماضي ولم تقبل الخروج من الحرب ؛ مع أن الشروط التي عرضتها روسيا في ذلك الوقت لم تكن شديدة الإرهاق ، وكان في وسع فنلنده أن تقبلها دون أن تحملها خسارة جسيمة ، لأن أقسى تلك الشروط كان [illegible] ويلات الحرب . ولكن ألمانيا وعدت فنلنده [illegible] ، فأخفقت مساعي الصلح ، وعاد القتال بين روسيا وفنلنده إلى الاشتعال ، وتقدمت الجيوش الروسية وتوغلت مسافة بعيدة في الأراضي الفنلندية .

ثم رأت حكومة فنلنده وبرلمانها ، بعد لأي ، أن رجحان كفة ألمانيا بات أمراً بعيد الاحتمال ، وأن جيوشها تتراجع — بل وتنهزم — في جميع الميادين في شرق أوربا وغربها وجنوبها ؛ فلم تجد مندوحة أن تخلع رئيسها ، وأن تضع مكانها رئيساً جديداً معروفاً بميله إلى الخروج من الحرب . وليس من المنتظر أن تمتنع الحكومة السوفياتية أو أن تفرض شروطاً أقسى وأشد مما فرضته من قبل ، لأن الراجح أن روسيا قليلة الرغبة في التوسع في هذه الأقطار الشمالية ، وأن مصالحها الإقليمية متجهة وجهة أخرى .

أما تركيا فإنها أيضاً قد خطت الخطوة الحاسمة للابتعاد من ألمانيا النازية ، فقد قررت حكومتها — ووافق البرلمان بالإجماع — أن تقطع صلاتها السياسية والاقتصادية

مع ألمانيا ابتداء من منتصف الليل فى اليوم الثانى من شهر أغسطس الجارى . وليس مما يثير الدهشة أن تبادر تركيا اليوم باتخاذ هذه الخطة الصريحة ؛ وإنما المدهش أنها استطاعت أن ترجئها كل هذا الزمن الطويل ، وأن تسوّف فى اتخاذها كل هذا التسويف .

فلقد سبق لتركيا — حتى قبل نشوب هذه الحرب — أن أبدت ميلها الصريح إلى المعسكر الديمقراطى ، فى صورة لا تحتمل أدنى شك . ولم يكن سبب ذلك الميل بغضها لألمانيا ، بل لأنها توجس شرا من حليفة ألمانيا فى المحور : إيطاليا الفاشستية ، التى لم تدخر وسعاً فى أن تصدر من التصريحات والإشارات ما يبعث الشك فى نفس الدولة التركية .

لهذا كان من المنتظر ، عندما انقسمت أوربا إلى معسكرين متعادين ، أن ترى تركيا أن مصلحتها فى مصادقة المعسكر الديمقراطى ، والابتعاد عن المعسكر المحورى أو مداراته جهد الطاقة . ومن أجل استمالة تركيا إلى جانب الحلفاء ، حُلّت مشكلة سنجق الإسكندرونة الحل الذى أرضى تركيا كل الرضا ، بأن منحت السنجق بأكمله ، وبعناصره العربية والتركية على السواء ، واقتطعت قطعة من بلاد سوريا العربية الصميمة وضمت إلى الوطن التركى . فكان ذلك عربونا عظيما للصداقة بين تركيا من جهة ، والمعسكر الديمقراطى من جهة أخرى . ثم عقدت قبل الحرب محالفة المساعدة المتبادلة بين بريطانيا وفرنسا وتركيا . ولم يعقد بين الجمهورية التركية وألمانيا حلف أو معاهدة ... ولذلك كان من الجلى الواضح عندما بدأت الحرب الحاضرة فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ أن الجمهورية التركية تحوم حول الحمى الديمقراطى ، وتوشك أن تقع فيه . واستولت تركيا بفضل هذه المحالفة على مساعدات جليلة مالية ومادية ، استعدادا ليوم قد تضطر فيه لأن تمتشق الحسام وتخوض حومة الوغى .

ولكن موقف تركيا بعد ذلك قد أخذ يدخل فى أطوار شتى . وتوخيا للوضوح نذكر أنها قد مرت بها على الأقل خمسة أطوار انتهت بالأمس بقطع الصلات مع المحور ؛ وقد لا يمضى وقت طويل حتى تشترك فى الحرب .

أما الطور الأول فهو موقف الحياد المسلح مع الميل إلى الدول الديمقراطية . وقد ظلت هذه الحالة هى الغالبة على السياسة التركية إلى صيف عام ١٩٤٠ .

ثم بدأ بعد ذلك الطور الثانى . فلقد خرجت فرنسا من الحرب ، وضعفت بخروجها المحالفة الثلاثية . ومالت حكومة فيشى إلى سياسة « التعاون » مع ألمانيا . وانقطعت العلاقات بين بريطانيا وبين فرنسا والأراضى الخاضعة لفرنسا ، ومنها سوريا . وظهرت قوة ألمانيا الهائلة ، ولا شك أن تركيا لم تكن تقدر أن تلك القوة قد بلغت هذه الضخامة — لذلك لم يكن بد من أن تقف تركيا فى طورها الجديد موقف الحياد الدقيق ، المشرب بشىء من التودد إلى ألمانيا . وقد اشتدت هذه الحالة وضوحا فى ربيع عام ١٩٤١ عندما أغارت ألمانيا على بلاد البلقان ، واحتلت يوجوسلافيا واليونان وألبانيا ، وبسطت نفوذها أيضا على رومانيا وبلغاريا ، وأصبحت الجيوش الألمانية واقفة على الحدود التركية ، ومرابطة فى بحر اليونان ، ومعها جزر كثيرة مثل ميدلّى وخيوس وكوس ، ملاصقة تماما لسواحل الأناضول . وفى مثل هذه الحال لم يكن بد من أن تبدى تركيا بعض الود نحو ألمانيا ، وأن تعقد معها معاهدة صداقة وتجارة وعدم اعتداء ، وذلك فى فى شهر يونيو سنة ١٩٤١ . وقد أعلنت حكومة تركيا فى ذلك الوقت بصوت خافت ، أنه ليس فى تلك المعاهدة ما يناقض المحالفة القائمة بينها وبين بريطانيا . فصدقناها والتمسنا لها العذر . ولكن لا شك فى أن الميدول التركى فى هذه الفترة كان يميل إلى الجانب المحورى .

بعد ذلك بقليل اشتبكت ألمانيا فى حرب شعواء مع روسيا ، وهذا من غير شك قد شغلها وملأ أيديها بأعمال جسام لا تستطيع معها أن تفكر فى الاعتداء على تركيا . فتنفست هذه الصعداء ، وساعدها على التنفس الحر أن الجيوش البريطانية والفرنسية غزت سوريا وفتحتها ، ووصلت قواتها مرة أخرى إلى حدود تركيا ، ووجد الاتصال الأرضى المباشر بين معسكر الحلفاء ، وبين الجمهورية

التركية . فأصبحت تركيا فى مركز وسط بين المعسكرين . ولعل هذا الطور الثالث هو الذى وقفت فيه موقف الحياد الدقيق . وقد أدركت حكومتها أنها لو استطاعت أن تظل بمعزل عن الحرب إلى نهايتها لأدت إلى الشعب التركى أجل الفوائد وأعظمها . وقد دامت هذه الحالة إلى شتاء سنة ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ، أى إلى الوقت الذى أخذت فيه الجيوش الروسية تتقدم بسرعة هائلة ، وجيوش الحلفاء تتقدم تقدمها الباهر فى إفريقيا الشمالية . وأخذ يظهر لذوى النظر الثاقب بدء رجحان كفة الحلفاء . ولم يكن بد من أن تحس تركيا هذا التحول ، لأن انتصار روسيا فى ألمانيا ، أى أكبر قوة حربية عرفها العالم ، سيجعل من الممكن أن تطالب روسيا بوضع مشكلة المضايق على بساط البحث ؛ ولا بد لتركيا أن تحسب لهذا الأمر حسابه .

لهذا رأينا تركيا فى شهر فبراير سنة ١٩٤٣ تتخذ موقفاً جديداً ، فيه ميل صريح إلى الأمم المتحدة ؛ وهذا الموقف قد مُهد له باجتماع مستر [illegible] بريطانيا من جهة ، وقادة الشعب التركى من جهة أخرى ، ذلك هو اجتماع أطنه الشهير ، الذى تم فيه الاتفاق على خطة جديدة تنص على توكيد روابط الصداقة بين تركيا وبريطانيا وعلى العمل لمساعدة تركيا فى المحافظة على « سلامتها الدفاعية » . وطلب المستر تشرشل من الناس ألا يحاولوا تعجل الحوادث ، والتكهن بما قد تنطوى عليه تلك الاتفاقية من الاحتمالات الخطيرة ؛ وأن تنتظر حتى يكشف لنا المستقبل عنها .

ولقد كشف المستقبل عن جانب كبير من أمر تلك الاتفاقية . ونحن نعلم الآن أنها كانت تنص على أن يقوم الحلفاء بإمداد تركيا بالأسلحة والذخائر والمؤونة اللازمة لسلامتها ؛ وأنها بعد ذلك ستقدم للأمم المتحدة مساعدات قيمة تمكن جيوشها من مهاجمة البلقان ، وتمكن الطائرات البريطانية من الإغارة على المواقع الألمانية . والظاهر أن تركيا قد فهمت من هذه المساعدات أكثر مما رمى إليه قادة الأمم المتحدة ، فكانت ترجو أن تزود بالدبابات الحديثة والطائرات ، إلى جانب المدافع والبنادق والذخائر والركبات . ولكن المران الطويل على تلك الآلات الحديثة كان حتما سيؤخر الهجوم على مراكز الألمان البلقانية . ولذلك اختلفت وجهة النظر التركية عما رأته الأمم المتحدة ، وعدلت القيادة العليا للحلفاء عن فتح ميدان جديد فى البلقان . ولكن تركيا — رغم هذا — لم تقصر فى توكيد صداقتها للدول المتحدة ، وأجابت رغباتهم فى منع الكروم وبعض السلع الأخرى عن ألمانيا . ولكن كان من الواضح أن هذا كان فى نظر الأمم المتحدة بمثابة « أضعف الإيمان » . ورأت تركيا من جانبها أن انتصارات الحلفاء توشك أن تكون حاسمة فى تقرير الحرب ، وأن التسويات التى تجرى بعد الحرب ستتناول المحاربين والمحايدين على السواء ؛ وأن مشكلة المضايق ستثار بصفة قاطعة . وأنها لا يصح أن [illegible] هذه الحال وموقفها من الفريقين موقف المحايد ، الذى تقاضى أجراً عظيماً لقاء حياده دون أن يعمل شيئاً .

وهكذا نرى موقف تركيا يتخذ هذا الطور الخامس ، وهو [illegible] موقف بعيد كل البعد عن الحياد ، بل هو موقف الانضمام الصريح إلى المعسكر الديمقراطى . وليس بمستبعد أن تتعرض تركيا فى موقفها الجديد إلى نوع من الاعتداء من ألمانيا ، لأن تجاور المواقع التى ترابط فيها الجيوش التركية والنازية يفسح المجال للحوادث والاحتكاك بين الفريقين . واستعداداً لمثل هذه الحالة لا بد أن ستسمح للقوات الجوية البريطانية والأمريكية أن تساهم فى الدفاع عن الأرض التركية ، وأن يفسح لها منذ الآن مكان فى المطارات التركية فى الأناضول ، وفى تركية أوروبا .

ولقد تتعرض تركيا فى موقفها الجديد إلى شىء كثير من الأذى ، وقد تضطر لأن تخوض غمار الحرب . ولكن قادتها الذين اكتسبوا شهرة واسعة فى الحكمة والتبصر فى العواقب ، يقدرون أن الحرب توشك أن تنتهى بانتصار حاسم للحلفاء ، وأن ما يفقدونه اليوم سيعوضونه غداً بفضل اشتراكهم فى مفاوضات الصلح ، كأحد أعضاء الفريق المنتصر .

محمد عوض محمد

في الهواء الطلق

هذا صديق وأنا، نمشي على شاطئ البحر في رأس البر في وقت الأصيل، ونتنقل من الحديث عن الجو إلى المفاضلة بين الإسكندرية ورأس البر، إلى أخبار الحرب ومصير العالم، ثم إذا بنا ننغمس في الجدل في نظرية « التقدم المستمر للعالم ».

قال: إن العالم في تقدم مستمر، فهو اليوم خير منه أمس، وهو غداً خير منه اليوم؛ وقد أتى على الناس زمان كانوا ينشدون فيه مَثَلهم الأعلى في ماضيهم، واليوم ينشدون مثلهم الأعلى في مستقبلهم. وأذكر أني قرأت جملة لطيفة لكاتب غاب عني اسمه، وهي: « أن قدماء اليونان كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة فتدهوروا؛ وأما المحدثون فيرون أنهم من نسل القرود فتحضّروا ». وهذا عمل يوحي النظر في أغلاط العالم شيئاً فشيئاً، أي تقويمه شيئاً فشيئاً. وأنا ممن يؤمن بهذا التقدم. قد يكون ماضي أمة معينة خيراً من حاضرها، وقد يقف العالم وتتفكك أجزاؤه بعضها بعضاً — كما هو حادث الآن — وقد تقوم الثورات في الأمم فتدك النظام القائم وتقع في الفوضى، ولكن إذا نظرت إلى العالم من حيث هو كلٌّ، وفي أزمانه المختلفة، رأيته يتقدم دائماً، وإذا وقف فإنما يقف ليثب، وإذا كسر بعضه بعضاً فليخلق خلقاً جديداً خيراً من الخلق القديم، وإذا وقع في الفوضى حيناً فليبني على أنقاض النظام القديم البالي نظاماً جديداً متيناً، ثم يبلى الجديد فيُبنى خير منه وهكذا، وكل بناء جديد خطوة إلى الأمام.

وهذه الفكرة — مع صحتها — نافعة للإنسانية، ففي القرون الوسطى أيام كان الناس يعتقدون أن عصرهم الذهبي خلفهم لا أمامهم، غلب عليهم اليأس والتشاؤم وضعفت عزائمهم، وكان مثلهم الأعلى أن يعودوا إلى الوراء، لا أن يسيروا إلى الأمام، وغلبت عليهم الرجعية، ورموا كل من يدعوهم أن ينظروا أمامهم بالزندقة ونحوها، وتوقعوا قرب انتهاء العالم، فما هي إلا أجيال ثم ينقرض؛ فكان تقدمهم بطيئاً لأنهم تقدموا رغم أنوفهم لا بإرادتهم، وما كانوا التيار فعُوّقوا عن السير. فلما جاء عصر النهضة واعتنق الناس فكرة التقدم المستمر، ورأوا عصرهم الذهبي أمامهم لا خلفهم، فسارعوا إلى السير مع التيار، فتضاعف تقدمهم واتسعت وثبتهم، وانفسح أمامهم المدى، فالإنسانية في نظرهم أمامها مستقبل بعيد سعيد. ويجب أن يعتنق الشرق هذه الفكرة كما اعتنقها الغرب، فينظروا أمامهم أكثر مما ينظرون خلفهم، وينشدوا مستقبلهم أكثر مما يتغنّون بماضيهم، بل هم إن تغنوا بماضيهم فليستحثهم على السير أمامهم.

ففكّر صاحبي هنيهة ثم قال: لا أظن ذلك! ألا ترى هذه الموجة؟ — ونظر إلى موجة مسرعة إلى الشاطئ — إنها تتقدم سريعاً حتى تفنى، وتتبعها موجة أخرى وهكذا، والبحر هو البحر، قد يحدث المد ثم يحدث الجزر، والبحر لا يعدو نفسه لأن العالم يعيد نفسه. لعل الخلاف بيني وبينك ناشئ من اختلاف وجهة النظر في مظهر التقدم؛ فإن عددتَ مظهر التقدم تغلُّب الإنسان على الطبيعة وتسخير قوانينها لمصلحته، ورقي عقله، ونهوض العالم أكثر مما كان، وكثرة مكتشفاته ومخترعاته، فالرأي رأيك؛ وإن عددتَ مقياس الرقي سعادة الإنسان فإني أخالفك، فلسنا أسعد من آبائنا، ولا رقي العقل وكثرة المخترعات قللت من متاعبنا، بل ربما كان العكس هو الصحيح — إن شئت فانظر إلى عشش رأس البر تر مصداق ما أقوله: هذه عشش وضيعة تحوي ناساً فقراء في المال، فقراء في العقل، وهذه عشش غنية مترفة، فيها الراديو، وفيها التليفون، وفيها الطباخ الماهر والأكل الفاخر، وعقول أهلها أرفع مستوى وأعلى مقاماً؛ ولكن هل تستطيع أن تجزم بأن الآخرين أسعد من الأولين؟ ما أظن ذلك! فلو مررت بجانب عشش الأولين لسمعت الضحك عالياً، والرضا عاماً شاملاً، وقد تكون صحتهم أتم، ولذتهم بالأكل البسيط أوفر من هؤلاء

الأغنياء المعودين الذين تمدنهم أرقى ، وتقييمهم مثلا للتقدم المستمر . وما قيمة رقى العقل وكثرة المخترعات إذا لم تصحب بالسعادة وكان الأمر كما قال المتنبي .

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم؟

بل ما هذه العقلية التى تطنطن بها ؟ إن الإنسان مع تقدمه المزعوم لم يظفر إلا بمعرفة أعراض المادة ؛ أما حقيقة المادة وحقيقة الروح فلم يتقدم فى فهمهما أية خطوة ، بل لعل الإنسان كان يقوده شعوره إلى السلوك فى الحياة خيراً مما يقوده عقله المطعّم بالمنطق والفلسفة ! إن العالم — فى نظرى — كالرّجل المتردد يقدّم رجلا ويؤخر أخرى ، فهو يبنى ويزخرف ، ثم تعرض له جِنّة الحرب فيهدم ما بنى وما زخرف ، ثم يبدأ يبنى من جديد وهكذا ، وليته ما بنى وما هدم ؛ وكلما أجاد البناء أجاد الهدم . وشجرة المعرفة كشجرة آدم ، كلما أكل من ثمارها خرج من الجنة — والإنسان الكل كالإنسان الفرد — يبدأ طفلا ثم ينمو ، ثم يهرم ، ثم يموت ليخلفه طفل من جديد . وهكذا الأمم وهكذا العالم ، فهو يدور فى حلقة مفرغة .

قلت : لعل خلافى لك ينحصر فى نقطتين : الأولى أنك قللت من قيمة التقدم العقلى ؛ والثانية أنك عممت السعادة ولم تفرق بين سعادة وسعادة . والنقطتان مرتبط بعضهما ببعض أتم الارتباط ؛ فالإنسان إنما ارتقى عن الحيوان بعقله لا بحواسه وغرائزه ، فإذا سلمت بأن الإنسان أرقى من الحيوان وجب أن تسلم بأن الإنسان الأرقى عقلا أرقى من الإنسان الأضعف عقلا . وإذا سلمت بذلك وجب أن تسلم بأن العالم فى مجموعه إذا كان اليوم أرقى عقلا مما كان فهو فى تقدم مستمر . ثم إن السعادة العقلية أو اللذة العقلية أرقى من الجسمية ، بل إن الإنسان يفضل العقل مع الألم على الجهل مع اللذة ؛ فلو خُيّرتَ أنت بين أن تكون فيلسوفاً ساخطاً وأن تكون جاهلا راضياً لاخترت الأولى ، وحكمك أنت فى هذا الأمر أصدق من حكم الجاهل ، لأنك جربت اللذتين : لذة الجهل ولذة العقل ، واللذة المادية واللذة العقلية ، ففضلت الثانية على علم . ولو عرض على المتنبي الذى قال هذا البيت أن يكون الفتى الجاهل أو الفتى المتعلم لما اختار إلا نفسه وآلامها .

ولنعد إلى موضوعنا . إن العالم كله يسير اضطراراً نحو الكمال ، فالسديم إلى نجوم ، والنطفة إلى وليد ، والحيوان الأدنى إلى حيوان أرقى ، والبذرة إلى شجرة ، والشجرة إلى ثمرة . والطبيعة لا تزال بكل شىء حتى تنضجه ، فلِمَ لا يكون الإنسان كسائر ما فى العالم ، يسير نحو النضوج ؟ وقد دلنا العقل على أن قوانين العالم منسجمة ، يسير أكبرها على نحو ما يسير أصغرها .

قال : ولكن النضوج يعقبه الفناء .

قلت : ولكن الفناء يعقبه أن يولد خير مما فنى .

قال : لا دائماً .

قلت : لتكن نظرتنا كلية لا جزئية . إن الإنسان سائر إلى الأمام دائماً ، والعالم فى كل قرن خير مما قبله فى جملته والشرور لا تزال تقل شيئاً فشيئاً ، والإنسان بطبعه — وبالضرورة — ككل شىء فى العالم يسير نحو غاية هى الكمال ؛ ونظرية النشوء والارتقاء وتنازع البقاء وبقاء الأصلح ، تصدق على الإنسان كما تصدق على كل ما فى العالم .

قال : كم من شرير قتل خيّراً ، وكم من فئة متبربرة متوحشة غلبت فئة متمدنة راقية ! وميكروب الحمى الحقير أمات محمداً رسول الله العظيم ! وكل يوم نرى أمثلة من الخير يلتهمها الشر . ألم تر اليوم ما فعلت النار بمشة وأس البر كيف أتت عليها وعلى ما فيها ، وفزّعت أهلها ، وأرعبت جيرانها ، والتهمت كل ما وصل إليه لسانها ؟! وأهلها قد أتوا ليستجموا من عناء ، أو يستشفوا من مرض أو يتخففوا من ألم . وما قيمة هذا الحريق فى رأس البر بجانب حريق العالم فى هذه الحرب ؟ فلم كل هذا الشر إن كان يراد بالعالم الخير ؟

قلت : أعيد فأكرر قولى يجب أن تكون نظرتنا كلية شاملة لا جزئية خاصة ، فلا تنظر لشرير جنى ، ولكن انظر إلى ما أنتجت الجناية من تحسين ؛ ولا تنظر لميكروب

أمات ، ولكن انظر كيف تقدم الإنسان فعرف مكروبا لم يكن يعرفه ، وفتك بالكثير منه وهو يحاول الفتك بالباق ؛ ولا تنظر إلى الحرب وويلاتها ، ولكن انظر إلى نتائجها كم أصلحت من نظم ، وأظهرت من مفاسد حركت الهمم لتلافيها ووضع خير منها مكانها . ومن قوانين العالم العامة ألا يكون بناء إلا بعد هدم ، ولا علاج إلا بعد مرض — إن شئت الفكرة واضحة فقارن بين الإنسان في جيله الأول وانظر كيف كان يعيش ، وكيف كان يتصور العالم حوله ، وكيف كان يتصرف في المسائل التي تعرض له ، وكيف كان يحكم ؛ وبين الإنسان في جيله الحاضر ، كيف يعيش ويتصور ويتصرف ويحكم ، تؤمن بالتقدم المستمر والسير إلى غاية هي الكمال .

قال : إنك تبالغ كثيرا في تقدير المدنية ، وإني لا أعد تقدما إلا رقى الطبيعة الإنسانية ، وهل هي تقدمت كما تدعى ؟ إن المدنية فيما أرى ليست إلا طلاء رقيقا للطبيعة الإنسانية المتشابهة في القديم والحديث ، والإنسان متقدم — كما ترى — في حالة عدم الإثارة وعدم الاحتكاك ، فإذا أثير أو وضع في محنة زال طلاؤه ، وانكشف عن طبيعة تشبه طبيعة الإنسان الأول كما ترى في الحروب . إن الأمم في حرب بعضها بعضا لا تراها أكثر إنسانية ولا حبا للعدل ، ولا رغبة عن الانتقام من أسلافها الأولين ؛ ولا أظن أن الإنسان في حاضره قد شابه أي إنسان آخر قبله في فتكه وإبادته وتخريبه ! وحتى في غير أيام الحرب تستطيع أن تقارن بين الاستعمار القديم والاستعمار الحديث ، لترى ماذا يفعل الإنسان بالإنسان ، وهل تقدم إنسان اليوم عن جده ؟ ومن الغريب أنك ترى الإنسان المتمدن لم يذبح في حياته دجاجة ، ولم يقتل حشرة ، فإذا دخل في ميادين القتال كان سفاكا فتاكا ، وتكشف عن طبيعة تشبه طبيعة القط رأى الفأر لأول مرة — إن كان هذا فماذا فعلت المدنية ؟ أمدت سككا حديدية ، واخترعت الراديو والتليفون ، وأنشأت الآلات الصناعية ؟ وهل هذا تقدم في الطبيعة الإنسانية ؟!

لست — من غير شك — أنكر قيمة ما اكتشفه الإنسان الحديث وما اخترعه ، وما استفاد من تجاربه مما غير به وجه الأرض ، ولكني أؤمن في الوقت نفسه أنها أمور خارجة عن نفسه ؛ فإذا قسنا الإنسان بمقياسه الحقيق ، وهو طبيعته البشرية ، لم نؤمن بالتقدم الكبير الذي تدعيه . وهذا يدل على أن الإنسان خاضع لقانون الوراثة أكثر من خضوعه لقانون البيئة ، أو بعبارة أدق ، هو خاضع لهما بنسب متفاوتة جدا .

قلت : إنك تستصغر التقدم الإنساني إذا قسته بالطبيعة البشرية ، وتستنتج من ذلك فساد النظرية . ولكن . . .

وهنا قال صاحبي ألم تتعب من السير ؟

قلت : الحديث أنساني تعبي وأنساني نعمي ، فلا أذكر الأضحية تفرعها حجة ، فهل لك أن نجلس على الرمل نتمتع بغروب الشمس في البحر ؟ فجلسنا وسألني : ولكن ماذا ؟

قلت : ولكن ... أنك تقيس الإنسان القريب بالإنسان الحاضر ، والإنسان المعروف في التاريخ بالإنسان اليوم ؛ فأمعن في تاريخ الإنسان الأول يوم لم يكن يفترق عن الحيوان إلا قليلا ، وآمن بما يقوله العلماء المحدثون من أن عمر الإنسان على وجه الأرض مئات الآلاف من السنين ، وأن الطبيعة لا تعرف الطفرة ولكن تعرف التقدم البطيء ؛ فإذا لم تر إلا تقدما قليلا إذا قصرت نظرك على الإنسان التاريخي ، فإنك ترى التقدم كبيرا إذا ضممت إلى ذلك الإنسان قبل التاريخ ، وكم بين الإنسان الذي يشبه القرد ، وبين فلاسفة العصر الحاضر وعلمائه وشعرائه وفنانيه من فرق !

ثم إن في طبيعتنا البشرية نفسها مصداق ما أقول . إن الطبيعة لم تخلق فينا الأمل والطموح عبثا ، إنما خلقتهما للسعي الدائب للرقي الدائم ، ولو أرادت الطبيعة أن يقف الإنسان عند حد لجردته منهما كما جردت الحيوان . إن الأمل في الإنسان وظيفتين : احتمال متاعب الحياة الحاضرة ، والسعي لحياة مستقبلة خير من حياته التي يحياها ، وهذا مبعث التقدم

الساعة

وهي مقطوعة من الوصف العبقري الرائع

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

مع الزمان دائرة ... والحساب سائرة
قد قسّمت ناحية ... منها وأخرى حاسره
تحوى الزمان كلّه ... أوّله وآخره
تريك ما تعنى به ... من الزمان حاضره
آتيه في الغيب وما ... مضى طوال دائره
تبدأ حيث تنتهي ... دائبة مثابره
تظل طوال عمرها ... قادمة مسافره
حائرة وعندها ... في أن تظل حائره
صديقها الرقى بها ... كذلك دل ناظره
دعها تسر آمنة ... من عنت أو بادره
إن لم تصن من عبث ... مشت خطاها عاثره
إن صدقت فصدّقها ... توجيه غير آمره
أو كذبت فكذّبها ... بلا يمين فاجره
لسانها عقارب ... تزحف غير نافره
حسبك من ودّانها ... تومك وهي ساهره
تحفها معالم ... حول الطريق دائره
قد قدرت ما بينها ... تلك العقول القادره
وغيرها كم أبدعت ... من معجزات باهره
والله لولا علمنا ... بها لقلنا ساحره
بإحسنا في المعصم ال ... ناجي وهي سافره
معجزة الحسن بها ... لكل عين ظاهره
أسيرة في طوقها ... وكم تروح آسره
وكم تصاب مرة ... بعلة مساوره
والصدق من طبيها ... بعقد الدماء العاشره
كم يدعي كبراً ولو ... يصدق كان كاسره
أجرته في السقيـ ... م والصحيح وافره
نرى له عيادة ... في كل حين عامره
لا تحرم الساعة إلا ... كي تعود زائره

أحمد الزين

في مسكنه ، وملبسه ، ومأكله ، وعقليته ، ونفسيته .

قال : هب ما تقول صحيحاً ، فما قيمة « التقدم المستمر » إذا كان مصير الإنسانية الفناء ؟ لا شك أن سيأتي يوم تبرد فيه الأرض تبعاً لبرودة الشمس ، أو نحو ذلك كما كان الحال في كثير من النجوم ، وإذا بالإنسانية كلها قد فنيت . وإذا كان كذلك ، فسواء صحت نظرية « التقدم المستمر » أو « الانحطاط المستمر » ، فالنتيجة واحدة وهي الفناء ، وبذلك تكون الغاية التي يسير إليها العالم غاية مضحكة ، فإذا كانت غاية مقصودة كانت غاية في منتهى السخف .

قلت : ذلك يكون صحيحاً لو حسبت حساب هذا العالم المادي وحده ، ولم تضم إليه الحياة الأخرى ؛ أما إذا آمنت بحياة أخرى يستمر فيها الرقي والكمال ، وتكون فيها الروح بعد تجردها من المادة أقدر على الرقي وبلوغ الكمال حتى تقرب من خالقها ، لم يكن لاعتراضك وجه . ثم إنا إذا سلمنا بهذه الحياة الأخرى .

. . . .

وهنا طلع علينا صديق صرح : السلام عليكم .

عليكم السلام .

ما لكما ساهمين ؟

نفكر .

في ماذا ؟

في نظرية التقدم المستمر .

ها ها ها .

أفي مثل هذا الجو وهذا المنظر يكون هذا الحديث ؟ تكلما في غروب الشمس الجليل ، أو في هذا البحر الجميل ، أو في هذا الهواء العليل ، لا في هذا الموضوع الثقيل ! ولكنكما كما قال المثل : يموت الزامر وإصبعه يلعب .

رأس البر أحمد أمين

هلال شـــــعبان

لما وقعت عيني أمس على الهلال ، وردّد لساني على غير وعى منى أنشودة الشهر الجديد : « هلّ هلالك ، شهر مبارك ، الخ ... » رأيت أصابعي تعبث في جيبي لعلها تصيب في حناياه شيئاً من النقود الفضية ، كيما أرى على وجهها هذا الهلال ، حتى يكون شهره شهر يمن وإقبال — ولكنني ما كدت أفرغ من هـذه المراسم حتى غشيتني كآبة أطرق لها رأسي ، ثم سبحت من ذكريات الماضي في بحر عميق . . .

***

تذكرت الظروف التي رأيت فيها هلال شعبان في العام الماضي . فتذكرت أني كنت أسير بعد الغروب بقليل في شارع مقفر في طرف من أطراف « العباسية » ، وكنت أخبط في الأرض تخبيل الخطا ، موجع القلب ، شارد اللب ؛ أحمل في يدي حقيبة سفر فارغة ، ولكني أحمل في رأسي جبهة أوقرتها الهموم — وظللت أرفع قدما وأضع أخرى حتى وجدتني أقف إلى جانب الواقفين أمام (بوابة) مقفلة من بوابات السكة الحديدية تعترض الطريق الذي كنت أسير فيه ... هناك رفعت رأسي المنكس ، فطالعني ذلك القوس المضيء في صفحة الأفق الشرقي ، فأنكرته كما لو كنت لم أره قط قبل ذلك اليوم .

***

لم أكن أعرف من الأيام أسماءها في ذلك الحين ، ولم أكن أعرف منها تواريخها ، ذلك لأني كنت خاضعاً في تلك الفترة من عمري لتقويم جديد — تقويم بدايته ذلك اليوم الذي ارتفعت حرارة ابني فيه إلى ٤٠° ، وقال لي الطبيب فيه إنه يجب أن أنتظر ثلاثة أسابيع قبل أن أتطلع إلى أي تحسين !! — أربعون درجة تصهر هذا اللحم الغض والمخ الناعم ثلاثة أسابيع كاملة لو ترفقت بي المقادير ، وإلا فإن المحنة تمتد إلى ما بعد هذه الأسابيع الثلاثة بأسبوع رابع وخامس وسادس أيضا !! فكنت منذ ذلك اليوم أحسب الأيام فأقول إن هذا هو اليوم الرابع في الأسبوع الأول مثلا ، وإن غداً سيكون اليوم الخامس ، وهكذا ... ولم تكن من أيامي الجمعة ولا الأحد ، ولم يكن من شهوري أغسطس ولا شعبان ... ولذلك لم أكترث لهذا الهلال الذي طالعني وأنا أمام « البوابة » لأنه لم يكن ليعنيني ، ولأنه لم يكن في تقويمي الجديد — ولذلك أيضاً لم أستقبله بتلك الأنشودة المأثورة ، ولم تمتد يدي إلى جيبي كدأبي منذ تلبهت لنفسي ، وكان لي جيب ، وكان هذا الجيب ينطوي على شيء من النقود ....

***

في ذلك المساء خرجت من مستشفى الحميات ، حيث كنت أودعت ابني في الصباح بناءً على مشورة الطبيب المعالج ، وكانت حال المريض قد بلغت من التعقد والخطورة حداً أوجب هذا الانتقال .

وكان مريضنا أعز الناس علينا ، لو سمعناه يعطس يوما لبتنا ليلتنا مسهدين نترقب ما يطلع علينا به الصباح من خبر جديد ؛ ولو شكا مغصاً لقرقرت أمعاء أهل البيت أجمعين قبل أن يستوضحوه كيف يشكو وماذا يشكو ؛ ولو أرسلناه إلى الحديقة يوماً يرتع ويلعب كما يفعل أترابه من الأطفال فجرى ، فوقع ، فخدشت ركبته وعاد إلينا (برجل مسلوخة) ، لأفرغنا على جرحه كل ما عندنا من مطهرات ، ولضمدناه بالشاش المعقم ، ولما كفانا أن نعرض أمره بعد ذلك على أقل من على إبراهيم باشا ....

فهذا هو الطفل الذي أراد له الله أن يضع رأسه في كيس من الثلج يعيش به شهراً أو نحو شهر ، وهو لا يذوق من طعام أهل الدنيا غير الماء أو ما يشبه الماء !

***

وأقبل علينا الطبيب في صباح ذلك اليوم المشهود يقول إنه اتصل بإدارة المستشفى ، وأنهم سيرسلون إلينا بسيارتهم لحمل المريض حوالى الظهر . . .

وكان على أم المريض أن ترافقه . وكان على أنا أن أذهب بعد ذلك إلى محل الجديد في بلد بعيد جداً من القاهرة . وكان في البيت أطفال آخرون لا يستطيعون أن يديروا أمر معاشهم . ولا كان من المستطاع أن نتركهم في رعاية الخدم ، لأن الخدم لا يؤتمنون في أمثال هذه الظروف . ولم يبق لهذا الموقف إلا حل واحد يفرض نفسه علينا فرضا . . . وهو أن تقيم الأم مع ابنها في المستشفى ؛ وأن يذهب الوالد إلى محله في ذلك البلد النائي الذي لم يكن له معدى عن السفر إليه ؛ وأن يقيم باقي الأطفال في بيوت الأقارب ، وأن يقفل البيت موقتا حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا . . . .

وعلى هذا الأساس تمت التصفية ، فخرج إلينا من أهلنا من استلم أطفالنا الأصحاء ، وجاءت بعد ذلك عربة المستشفى لاستلام الوديعة الغالية ، فركبت مع الطفل أمه . وركبت أنا مع الاثنين ، لأن الحمى التي كانت ترعى جسد الصغير وصل هجيرها إلى عقل الأم فأصبحت أولى منه بالعناية .

وفي المستشفى وجدنا كل شيء جديدا علينا . ولا يخفى ما تحدثه هذه النقلة من اضطراب نفسي ، ولو ربما يعتاد الإنسان بيئته الجديدة . ناهيك بمن توفر لهم من أسباب الاضطراب قبل ذلك ما لا يدع زيادة لمستزيد . فكانت تلك الساعات الست ، التي مرت بي بين دخول المستشفى ظهراً وبين إخراج عماله لي عند الغروب ، دهراً كاملاً بكل ما في طوق الدهر أن يحمله من محن وآلام . . .

ومهما يكن من رجاحة عقل الإنسان ، ومهما تكن تفاهة ما قد عبر به في حياته من تجارب ، فإنه يقضي عليه في أيام محنته حتى تتجسد في عينيه الأشباح وتتحيز الأوهام ، ويملأ الأمر صدره قبل وقعته ، ويضيق به ذرعا إذا وقع ، ويبتلي في نفسه بأشد مما تبتليه به المقادير .

وليس ينقذ الإنسان في أمثال هذه المواقف إلا رصيد طيب من خلق التفاؤل والصبر والإيمان بالله . وأن يكون من قبل قد راض نفسه على إدراك أن هذه الدنيا معبر قصير يزدحم عليه العاطل والحالي على السواء ، وهما في طريقهما من الأزلية إلى الأبدية ، ثم ينتهيان إلى نهاية قريبة واحدة . وإنه لفرط قصر هذا المعبر لا يكاد ينتفع الحالي فيه بحليه ، ولا يجوز أن يتأذى العاطل فيه من عطله . وإنه لذلك يجب أن يأخذ المرء من الدنيا ما تعطيه ثم يقتنع به . وإنه ما دام يعيش مسيراً في الحياة غير مخير فمن الحكمة أن يجعل شعاره : « إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون » .

* * *

طافت كل هذه المعاني برأسي المثقل وأنا أقف أمام « البوابة » في انتظار مرور ذلك القطار ، الذي قطع علي وعلى غيري الطريق ، وإذا بقعقعة دواليبه وجلجلة حديده تقترب نحونا رويداً رويدا فتنبهني من تلك الغيبوبة التي أغرقني فيها تفكيري . . . وإذا بي أنفث من صدري نفساً عميقاً كأنما زفرت به كل ما كان يعشش في حناياه من وساوس !

وانطلقت بعد ذلك في طريقي حتى دخلت داري الخاوية الموحشة ، فجملت تحية نزولي فيها تلك الصورة ركعتين صليتهما لله . وإني أحمده تعالى على ما آنس بهما من وحشتي في تلك الليلة ، وما آمن من خوفي !

* * *

هذا هو تاريخ اليوم الأول من فترة قوامها ستون يوماً ، سار بنا موكبها الملىء بالحوادث حتى أشرفنا على قباب « حي النفير » وكدنا نشرف على أقبائه أيضا ، لولا أن

مسلمو بوسنة وهرسك

توجد مقاطعة بوسنة وهرسك فى وسط شبه جزيرة البلقان ، وتقع بين نهر درينا فى الشرق ونهر ساقا فى الشمال، ونهر أونا فى الغرب ، وتمتد جنوبا إلى حدود دالماسيا .

والبلقان كما هو معروف من التاريخ العمومى ، كان ولا يزال مزيجا من الشعوب المختلفة الأجناس والأديان ، حتى يتعذر علميا ضبط الفوارق الحقيقية بين هذه الأجناس المختلفة ، وتعيين انتماء مجموعة معينة من هذه الشعوب إلى جنس معين . ذلك أن البلقان كان مدى القرون قنطرة العبور للأقوام والشعوب المختلفة ، التى هاجرت من آسيا إلى أوروبا ومن أوروبا إلى آسيا . فمن وقت حركة الشعوب الأسيوية الكبيرة فى الفترة التى نسميها فى التاريخ « هجرة الشعوب » ، عبرت أقوام متنوعة متلونة هذه القنطرة الدائمة زاحفين من الشرق إلى الغرب ؛ وكذلك أثناء الحروب الصليبية زحفت الشعوب الغربية المشكلة فى تشكيلات الجند من الغرب إلى الشرق عبر هذه القنطرة أيضاً . وكل شعب من هذه الشعوب المهاجرة العابرة ترك أثرا ما فى الشعوب البلقانية ، حتى إن الناحية الأنثولوجية للشعوب البلقانية صعبة التحقيق والتبيين كما قلنا .

وفى القرنين الخامس والسادس الميلادى تحركت الشعوب السلافية من سهول روسيا الوسطى زاحفة نحو الغرب والجنوب ، واقتحموا حدود الدولة البيزنطية ، وفى مرور الزمن استوطنوا الربوع البلقانية ، وأخذوا يتمدنون شيئاً فشيئاً بمدنية بيزنطة بعد ما اعتنقوا الدين المسيحى . وأسست هذه القبائل السلافية فيما بعد دويلات فى البلقان ، وأهم هذه القبائل هم الصرب والكرواتيون . فكان للصرب دولة فى شرق البلقان ، وللكرواتيين فى غربه ، بينما نشأت فى الوسط ، فى مقاطعة بوسنة ، دولة سلافية ثالثة هى دولة بوسنة . وكانت هذه الدولة فى بعض الأحيان كبرى الدول السلافية فى البلقان .

انتشرت النصرانية بين السلافيين فى البلقان على أيدى القسيسين من مقاطعة اليونان هما كيريل، وميتوديوس . فلما حصل الانشقاق بين بيزنطة وروما وانفصلت الكنيستان، سقط الصرب تحت نفوذ الكنيسة الشرقية ، بينما انضم الكرواتيون إلى كنيسة روما . والحد الفاصل بين الكنيستين امتد من بلغراد فى خط متعرج إلى البحر الادرياتيكى حتى وقعت بوسنة فى ملتقى الكنيستين .

ومن القرن الثانى عشر الميلادى انتشر فى بوسنة مذهب دينى معروف باسم بوغوميل (معناه « محب الله ») وازدهر هذا ازدهارا كبيرا جدا ، حتى الملوك البوسنويون كانوا يدينون بهذا المذهب ، وكان هذا المذهب دين الأغلبية الساحقة من أهالى بوسنة وهرسك قبل ظهور الإسلام فى هذه الأقطار . قال السير توماس أرنولد فى كتابه « تاريخ انتشار الإسلام » ما يأتى :

« إن الأغلبية العظمى من أهالى بوسنة وهرسك قبل الفتح العثمانى كانت تنتمى إلى مذهب دينى خاص معروف باسم بوغوميل ، وكان هذا المذهب معتبراً من الكنيسة

تداركتنا رحمة الله بجرعة من الدم أجريناها فى عروق المريض وهو فى اللحظة الأخيرة التى كان يرفع الموت فيها رايته البيضاء بعد جلاد شهرين متتالين . فوفقنا بذلك إلى اجتذابه مرة أخرى نحو هذا المعبر الفانى ليتم معنا رحلته عليه .

* * *

وإنى لأعتذر عن تقدمى بهذا الحديث الخاص إلى أسرة الثقافة ، فإنى لم أسقه إلا تبريرا لغيابى عنهم كل هذه الشهور الطوال ، ولقد شعرت وأنا أعود إليهم أن لا بد لى من أن أقول فى ذلك كلمة ، فكانت هذه هى كلمتى . ولعل حديثى معهم فى المرة القادمة أن يكون أشرح للصدر ، وأروح للنفس من هذا الحديث .

ع . ع

النصرانية الرسمية مذهبا إلحاديا . ومن القرن الخامس عشر كان المعتنقون لهذا المذهب مضطهدين شر اضطهاد من جانب بابا رومة . وفى الكتاب الذى أرسله بابا ثوان الثانى والعشرون إلى ملك بوسنة نجد هذه البيانات :

« ولدى العزيز ، ملك بوسنة النجيب إشفان » !

بلغنا أنك ابن كنيستنا الصادق ، لأجل ذلك ننتظر منك إبادة الملحدين الموجودين فى مملكتك ، وننتظر أيضاً معاونتك الخالصة مع رسولنا ، مأمور الكزيسيون فابيوس . إن الروافض قد انحدروا إلى بوسنة من الجهات المختلفة ، حيث وجدوا مكانا خصبا لغرس بذور أشنع الضلالات ، ويسعون بشتى الوسائل إلى إضلال أذهان الكاثوليكيين وإفساد عقائدهم النزيهة ، آخذين بأهداب الدسائس الإبليسية المعروفة ، مسلحين بأزهار الكذب والأضاليل ، متظاهرين بتمسكهم بالدين النصرانى ، حتى إنهم فى الحقيقة ذئاب وحوش فى جلود الحملان الأبرياء ، وهم يبذلون أشد الاهتمام بتسميم عقول قطعان المسيح البريئة وعقائدها القديمة » .

كان البوغوميل يعيشون سنين عديدة كالمشردين فى سبيل حرية عبادتهم ، يعيشون بين المطرقة والسندان ، مضطهدين من الشرق والغرب ، ولكنهم رغم هذا كله لم يتزعزعوا فى دينهم ، ولم يتركوه إلى غيره إلى حين ظهور الفرق الإسلامية الأولى فى هذه الربوع .

سقطت بوسنة تحت حكم الأتراك سنة ١٤٦٣ م . وهرع البوغوميل إلى اعتناق الدين الإسلامى جملة لما وجدوه فى الدين الإسلامى من مشابهة مدهشة بينه وبين مذهبهم . وهذا المذهب الدينى كان معروفاً فى الشرق فى زمان الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فاعتنقه العساكر الرومان ونقلوه من العراق إلى بلغاريا ، ومن هنا انتشر فى صربيا انتشاراً كبيراً ؛ حتى إن ملك الصرب استيفان نيانا خوفا من تسلط هذا المذهب على صربيا كلها أرغمهم على الهجرة من مملكته . فلما هربوا من صربيا جاءوا إلى بوسنة حيث انتشر مذهبهم بين أرق طبقات الشعب ، واعتنقته الأغلبية الكبرى من الشعب البوسنوى .

كان البوغوميل كما يبدو من طريقة حياتهم وعقائدهم وعاداتهم ، البقية الباقية من الذين حافظوا على دين الرسل والأنبياء من عهد سيدنا إبراهيم وإسماعيل إلى ظهور سيدنا محمد (ص) . قال السير توماس أرنولد فى الكتاب المذكور :

« إننا نجد من أقوى الأسباب لاعتناق البوغوميل الدين الإسلامى جملة أن مذهبهم كان فى الواقع يشبه الإسلام فى نقط كثيرة . فإنهم لم يكونوا يعبدون مريم ، ولم يعترفوا بحق القسيس فى غفران الذنوب ، ولذلك لم يكن عندهم عادة اعتراف الذنوب فى حضرة القسيس . وكانوا يردّون أشكال الرهبانية المختلفة ويبغضون الصليب أشد البغض ؛ بينما اعتبروا وضع الأشكال والصور والتماثيل فى المعابد ، والأمانات المقدسة الموجودة عند النصارى ، اعتبروا هذا كله شركا مبينا . أما معابدهم فكانت بسيطة وغير مزينة بالأشكال على عكس معابد النصارى ، وكانوا متفقين مع المسلمين فى استنكار الجرس الكنائسى ويسمون هذا الجرس « نفير إبليس » . ما كانوا يعتقدون أن السيد المسيح هو الذى صلب ، وكانوا فى هذا الاعتقاد متفقين مع ما ورد فى القرآن الكريم فى شأن وفاة السيد المسيح . وأما المشروبات الروحية فكانت محرمة عندهم ، وفى الحياة العادية يميلون إلى الرياضة البدنية . كانت النظافة عندهم مفروضة مكتوبة ، وكانوا يصلون خمس صلوات فى النهار وخمسا فى الليل ، وكانوا يصلون جماعة جاثين على ركبتهم . فلم يكن هناك يجدوا فرقا كبيراً بين عبادتهم وعبادة المسلمين فى مساجدهم » .

فكما ترى من هذه الحقائق كان البوغوميل أقرب إلى الإسلام منهم إلى النصرانية ، وإن كانت النصرانية الرسمية تعتبرهم مذهبا نصرانيا ضالاً . ولكن رغم كل هذه الحقائق الظاهرة يزعم كثير من الجهلاء المتعالمين أن الإسلام انتشر فى البلقان وفى غير البلقان بالسيف والنار .

ولكن الجهلاء جهلاء لأنهم لا يعرفون حقائق الأمور.

فلما كانت محاكم الانكزيسيون تشتغل في الأندلس في سبيل تنصير المسلمين، وتنظيف البلاد منهم ومن اليهود بالسيف والنار، استفتى السلطان سليم شيخ الإسلام على أفندى زمبلى في رد المثل بالمثل بالنسبة إلى نصارى البلقان، فأفتاه الشيخ قائلا: «لا إرغام في الدين، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وما دام النصارى يؤدون واجباتهم نحو الدولة يجب على الدولة أن تحميهم وتذود عنهم»، فشتان بين هذا الحكم وبين أعمال الإنكزيسيون، وما أبعد الإسلام عن إرغام أحد على اعتناق تعاليمه. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ومن ناحية أخرى لم ينتشر الإسلام في البلقان بين الشعوب السلافية إلا في بوسنة وهرسك. فللباحث أن يتحرى أسباب هذه الواقعة، ويجدها بلا شك في نفسية البوسنويين العميقة، وما كانوا محاطين به من اضطهاد شديد من الشرق والغرب، ومن قرب دينهم إلى الإسلام.

والإسلام تغلغل في قلوبهم تغلغلا قلما يوجد عند شعب إسلامي آخر، وعندهم حرارة دينية متقدة في صدورهم، لاحظها كل من مر بهذه البلاد. والإسلام عندهم صاف طاهر، لا تشوبه شائبة. وهم ضحوا في سبيل هذا الدين المبين بتضحيات لا مثيل لها، وأقاموا على أقصى حدود لنفوذ الإسلام في أوروبا حصونا من صدورهم، يدافعون عن كيان الدولة الإسلامية مدة خمسة قرون. وكانوا المدة وجود الدولة التركية في البلقان مشمولين بعطف السلاطين، ولعبوا في أوقات معينة الدور الأول بين مجموعة الشعوب الإسلامية في الدولة التركية، وكان لهم استقلال تام في داخل حدود مقاطعتهم، وترقوا إلى أعلى المناصب في الدولة التركية في أزهى عصورها. يكفي لك دليلا ما قاله السير توماس أرنولد: إنه كان من البوسنويين من سنة ١٥٤٤ إلى سنة ١٦١١ تسعة رؤساء وزراء (الصدر الأعظم)، وهو أكبر منصب في الدولة بعد السلطان مباشرة. وكان أحدهم، وهو صقلي محمد باشا رئيس الوزراء لمدة ست عشرة سنة كاملة في عهد السلطان سليمان القانوني، والسلطان سليم الثاني، والسلطان مراد الثالث! حتى إن المؤرخين يعتبرون بحق بدء انحطاط الدولة العثمانية لا من وفاة السلطان سليمان، بل من وفاة صقلي محمد باشا. وصقلي هذا هو الذي هدد أوروبا بكلمات مأثورة: «فلا تغضبني أوروبا فإنني أقدر أن أبني على حدود الإمبراطورية جداراً لا يتخطى!»، وهو الذي قال للإميرال قيلج علي باشا بعد معركة ليبانتو البحرية المشهورة حينما انهزم الأسطول التركي شر انهزام: «لا تحزن فإنني أقدر أن أصنع في السفن بدل الحديد فضة، وفي قلاعها بدل الكتان حريراً». وهو الذي كان يفكر جديا في الجامعة الإسلامية وتأسيس دولة تشمل المسلمين كلهم، وكان قد عزم أن يحفر قناة السويس في الجنوب، وأن يوصل نهر الدون بنهر الفولجا في الشمال، لكي يتسنى له إنشاء المواصلات بين استامبول والهند وآسيا الوسطى. وقد أوشك على تنفيذ هذه المشروعات العظيمة لولا الدرويش الملعون الذي أنهى حياته بضربة قاتلة. وليس هو الوحيد من جنسه، فهناك الكرواتي محمود باشا، وأحمد باشا هرسكي، وغازي خسرو بك وغيرهم وغيرهم. وهؤلاء العظماء وأعمالهم الجسام أوحت إلى زعيم شعراء بوسنة وهرسك المرحوم الدكتور صفوت بك بشاغيتش بالأبيات المترجمة في هذا المعنى:

إننا وإن كنا قليلي العدد فالفخر يملأ صدورنا، لأننا أهدينا الشعوب عدة كباراً منا وعظماء كالبسيور.

وأما أعمال البوسنويين في ميدان الآداب والعلوم الإسلامية في هذه الفترة من الزمن، فالرجوع إلى كتاب «الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنة» للأستاذ محمد خانجيتش.

انفصلت بوسنة من الشرق الإسلامي لأول مرة بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، وسقطت تحت نفوذ دولة غربية غير إسلامية. فقد قررت الدول المشتركة في هذا المؤتمر ضم بوسنة وهرسك إلى الإمبراطورية النمساوية بتبرير إجراء النظم الحديثة فيهما. وهذا الانضمام اعتبر في أول الأمر مؤقتا وصوريا، ولكن النمسا ضمت المقاطعتين فعلا وقانونياً إلى ممتلكاتها سنة ١٩٠٨، وأعطت الدستور للبلاد. وبعد احتلال البلاد من النمسا هاجر حوالى ثلاثمائة ألف مسلم إلى تركيا، ظنا منهم أن النمسا قد تحاول الاعتداء على دينهم. وفعلا كانت هناك بعض المحاولات في هذا الصدد التي يرجع الفضل فيها لقيام المسلمين جميعاً بمطالبة الاستقلال في الشئون الدينية والتعليمية والوقفية، فنالوا هذا الاستقلال بعد كفاح طويل.

فلما انهارت الدولة النمساوية عقب الحرب الماضية العظمى، أنشأت من أراضيها التي يقطنها البوسنويون والكرواتيون والصلوونيون ومن ممتلكي صربيا والجبل الأسود، دولة جديدة سميت في أول الأمر دولة الصرب والكرواتيين والصلوونيين، وأخيراً اتخذت لنفسها اسم يوغسلافيا. وهكذا انضمت بوسنة لأول مرة في تاريخها في دولة واحدة مع صربيا وكرواتيا.

والدولة الجديدة خبطت مدى عشرين سنة من عمرها طالبة شكلا مناسبا للحكم الداخلي، لكي ترضى رغبات مختلفة لشعوبها المختلفة، التي أثر التاريخ في كل واحد منها تأثيرا خاصا بحسب ظروفه ومناسباته. فلما طغت النزعة الجنسية على هذه الشعوب سببت اختلافات داخلية شديدة أدت إلى طلقات المسدسات في برلمان بلغراد.

فلما نشبت الحرب الحاضرة وقع ما هو معروف لكل من يقرأ الجرائد اليومية. وأخيراً أبلغتنا هذه الجرائد وقوع المجزرة البشرية في بوسنة، وأنه قتل من المسلمين البالغ عددهم مليونا واحدا أكثر من مائتي ألف وتشرد منهم مثل هذا العدد. فهذه ولا شك محاولة جدية مدبرة سلفا، ومحكمة أحسن إحكام لإبادة المسلمين هناك إبادة تامة. فيالعار وبالفضيحة على المدنية الحديثة وعلى أوروبا المسيحية ! !

نحن لسنا مختصين ولا مدعوين لوصف الأسباب التي أدت إلى هذه الآلام، هذه الوحشية التي لا مثيل لها في أظلم عصور التاريخ، ولكني أقدر أن أقول كلمة بسيطة، وهي أن هذه المحاولة يجب أن تخجل منها لا البلقان وحدها بل أوروبا المتمدنة كلها.

فالوحشية المتناهية التي أيقظت الأحقاد والضغائن المخبوءة في أعماق القلوب، جعلت من أجمل وأحسن مقاطعة في البلقان مسرحا للآلام لا تتخيلها إلا مخيلة دانتي. فآلاف الأطفال يهيمون في هذه الربوع المخربة كالقطعان المتوحشة من مكان إلى مكان، ولا يعرفون ما حل بآبائهم وأمهاتهم، وكم من جنين خرقه السكين في بطن أمه قبل أن يرى أنوار الشمس الساطعة، وكم من عرض قد هتك، وكم من عضو قد بتر، وكم من مسجد قد خرب، وكم من مدرسة كان يتعلم فيها القرآن الكريم قد دمرت، وكم من دم برئ قد سفك، وكم من عالم قد استشهد وهو في الصلاة متجها إلى بيت الله الحرام ! فهذا حقا مما يذيب القلب من كمد، إن كان فيه إسلام حقيقي. وثق أن هؤلاء المنكوبين لا يعانون كل هذه الآلام إلا لأنهم مسلمون.

والصرخة التي أرسلها ممثلوهم من مدينة استانبول إلى صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة المصرية هي صرخة مؤلمة، هي صرخة المحتضر؛ فإذا لم تجد هذه الصرخة صدى في العالم الإسلامي فقد كتب على البقية الباقية من مسلمي بوسنة وهرسك نهاية عهدهم في أوروبا المسيحية. فاعتبروا يا أولى الأبصار.

محمد يوسف هوروفتش

عضو البعثة البوسنوية في الأزهر الشريف

الملاك العصرى !

... قرأت فى إحدى الصحف حديثاً مع فتاة مصرية صغيرة السن جميلة الصورة ، حصلت بين زميلاتها الطيارات على أكبر شهادة فى الطيران . وقد جرى حديث الفتاة مع مندوب الصحيفة على الأسلوب الصحفى المعروف فى مثل هذه المناسبات . وأحببت أن أسجل بدورى حديثاً فى هذا الموضوع على أسلوب آخر ! فتمثلت فتاة أخرى فى نفس الموقف ، جرى الحديث « المتخيل » بينى وبينها على النحو الآتى :

أنا : ما الذى حبّب إليك هذه « الهواية » العجيبة ؟

هى : رغبتى فى أن أعلو حتى أرى الرجال أقزاماً ، أو نقطاً سوداء صغيرة .

أنا : شىء مطمئن ! هـذا يوحى لنا بأننا نبدو فى أعينكن كالعمالقة ، وأنكن غير قادرات على التخلص من هذه الصورة إلا بمثل هذه الوسائل البهلوانية .

هى : أو نحسب أننا نكره أن تكون عمالقة ؟ إن العز فى المركز يزهيه دائماً أن يكون غيره على شىء من القوة .

أنا : ولـكن هلا جعلت فى حسبانك أن الرجال لا يرونك أيضاً وأنت فى هذا العلو وعلى هذا البعد ؟

هى : إن أزيز الطائرة . كصوت المرأة أبداً ! ولقـد أفلح المهندسون فى إدخال كل تطور محتمل على الطائرة إلا فيما يتعلق بهذا الأزيز الفاضح ! وإنه ليكفى وحده أن يجذب رؤوسكم الـكبيرة نحونا .

أنا : ليس كل مايلفت الأنظار مهمًّا . وقد يراك الرجال وأنت عالية فيحسبونك غراباً ضالا أو صقراً يبحث عن قطعة من اللحم ملقاة فى عرض الطريق !

هى : إننا نفضل لحومكم على اللحوم التى تبـاع عند الجزارين .

أنا : بل قولى « الجزارات » ! فإنكن أولى بهـذا الوصف .

هى : حقاً ! ؟ (تنظر إلى يديها) إن يدىّ أصبحتا خشنتين من مجلة القيادة وإصلاح الأجهزة .

أنا : إن إصلاح أجهزة ألف طائرة لا يعدل خلل جهاز قلبك .

هى : وما الذى أدخل القلوب فى خشونة الأيدى ؟

أنا : بل المسألة هى إدخال الخشونة فى القلوب !

هى : وهل أخطئ حين أزاول عملا يدويا كإحدى القرويات أو إحدى العاملات ؟

أنا : لا تقولى ذلك ! إن العاملة قد تفقد جمال يديها ، ولـكنها لا تفقد قلبها . وقد تشقق يد القروية وقدمها ولـكن فى سبيل التئام نفسها وكبح ما ركب فيها من طمع ...

هى : هل تحب القرويات ؟

أنا : إنك تغيرين مجرى الحديث للمرة الثانية ! حدثينى عن شعورك وما تحسين عند قيادة الطائرة وهيمنتك على الأجواء واعتلائك فوق الأرضين .

هى : أحس بأنى امرأة . أحس بأنى سيدة كبيرة تسيطر على ملايين البشر ، ثم أفقد هـذه السيطرة حين أهبط إليهم .

أنا : أراك منصفة فى حق نفسك لما هبطت أبداً ؟!

هى : هى تضحية كما تراها !! فلعلك تقدرها وتقدر صاحبتها .

أنا : (ساخراً بدورى) إنك مـلاك حقاً ... ... ولـكن من نمط عصرى يختلف عن تلك الأنماط العتيقة التى صورتها الـكتب المقدسة .

هى : إنك لا تبالغ كثيراً فى هـذا الوصف . وأية صورة أخرى يمكن أن توحى إليك عند ما ترانى أهبط إليك من السماء ؟

أنا : إن السماء ترسل أيضاً الرعد والصواعق !

هى : تلك من خطط القيادة العليا !!

أنا : العفو ! ما هذا التواضع ؟!

هى : إنى حقاً متواضعة ...

أنا : هل أحسست يوماً وأنت فى هـذا الفضاء الملائكى إحساساً إنسانياً خاصاً ؟

هي : إني كثيراً ما أستشعر اللذة كلما تخيلت نفسي وأنا في شاهق أملأ حفنتي بالذهب وأنثره على الناس .

أنا : هذا شيء خليق بتفكيرك .

هي : أظنك لا تهزأ بي في هذه المرة ؟

أنا : مطلقا . وكيف تتخيلين الناس بعد مفاجأتهم بالذهب الذي أمطرتهم به من السماء ؟

هي : (ضاحكة مغتبطة) أتخيلهم وقد اندفعوا في جنون وشهوة يتلمسون القطع الذهبية من تحت الجثث التي أهلكتها شدة الزحام .

أنا : كان سؤالي من «الإحساس الإنساني الخاص»؟.

هي : (غير منتبهة) ماذا تقترح لاختيار الصورة التي يجب أن تصك على وجه القطع الذهبية ؟

أنا : صورة « الشيطان » هي التي أفضلها . . .

هي : وكيف نحصل على صورة الشيطان ؟

أنا : اسألي عنها أي رجل ، يصفها لك مريبا وأنت واقفة بجانبه !

هي : (لا تزال في نشوتها) لأصعب الأعمال أيسر علي وأهون من احتضان الذهب ثم إلقائه ! أوما تعطيني ذلك من تعطيل إحدى يدي عن القيادة ، أن أركب زراً في عجلة القيادة نفسها كلما ضغطت عليه انفتح باب تدافع منه المال وانتثر ؟

أنا : ألا ترين أن عاطفتك قد أخضعها « عدّاد » الطائرة ؟

هي : لماذا تحنق يا عزيزي على الطيارات ؟

أنا : إني أقصر حنقي على الطيارين ، أما أنتن فإني أضحكن بما هو أبشع !

هي : ولكني أجرب أحد أعمال الرجل ، وأقلده وأترسم خطاه !

أنا : خير لك أن تقلدي القردة .

هي : إني ما زلت أفضل الرجال على القردة .

أنا : لأنهم أشد غباوة .

هي : بل لأنهم أشد ضعفاً !

أنا : ثم تعارين وترائين ، أنت ولداتك ، وتدّعين بأنكن الجنس الأضعف ؟

هي : إنما نفعل ذلك لإثارة الغرور في نفوسكم .

أنا : أي غرور ؟ إن الهلع ليغمر قلوبكن ، وتطير أفئدتكن شعاعاً لتافه من الحادثات . . .

هي : ليس هذا خوف الضعيف ، بل هي أنانية القوى !

أنا : وما الذي يلجئك إذن ، مع هذا الاعتداد ، إلى ركوب الصعب من الأمور ؟

هي . وكيف يسمى الاعتداد باسمه إذا لم يطلّ من فوق قمم السحاب ؟ !

أنا : وأنتن بالرغم من هذا الادعاء فاشلات متخلفات .

هي : متخلفات في أي شيء ؟

أنا : في ميدان الرجل .

هي : إن البقرة الحلوب توجد دائما في المرعى ، أما المهزولة الجافة فتستخدم في أعمال الحقل !

أنا : نحن لا نريد الخروج من أعمال الجو . فترى في أولا كيف تناقضين طبيعتك بركوب هذا الطير الشيطاني المشئوم الذي يدل على الخراب والدمار أكثر من دلالته على الخير ؟

هي : إنه لا يدل على الدمار إلا بكم ، فدعوه لنا نحسن استعماله ، ونجعل الفضاء ميادين غزل لا ميادين حرب .

أنا : لعن الله الميدانين . ففي كليهما مصارع الرجال . .

هي : أتظن ذلك ؟ !

أنا : . . . .

. . . ووجدت الجنية قد لوت عنقها ، وبدت كمن جرحت ، فكسرت الحدة التي في عينيها وعبأتهما مسكنة ولينا ، وصعدتني برموشها الخاطفة وهي تشبك يديها مستكينة مستضعفة . . . فوقفت قبل أن يهبط الضعف براشوت على قلبي . . . واستأذنتها في إنهاء الحديث عن هذه الصورة . وقبل أن أسمع إجابتها موافقة أو معترضة ، لمست يدها في سرعة ، وسلمت هاربا . ! !

محمد علي ناصف

بين المسموع والمقروء

صبر :

الجاويش فريدرك بون ، جاويش بوليس فى حىّ الصحافة فى لندن . عرف الصحفيون وجهه خمسة وعشرين عاما . يمرّ عليه المحرّرون صباحا فيصبحون به :

— نعم صباحا يا مستر فريد .

— نعم صباحا يا سيدى .

وتقاعد الرجل قبل الحرب الحاضرة بخمس سنوات . فلما اشتعلت نيرانها استجاب داعى الوطن والتحق بقوة البوليس اللندنى ، وعاد إلى مَضربه الجديد من شارع فْليت شارع الصحافة ، فرأى من وجوه أهله ما اعتاد أن يراه ، ورأوا من وجهه وجها افتقدوه زمانا .

ولكن فى هذه المرة صاحبه سوء الحظ ، فقد أصابت القنابل بيته أربع مرات . ويأتيه الزميل وهو فى دورته من الشارع بخبر ما أصاب بيته ، فيطلب إلى زميله أن يأخذ مكانه ساعة ، ويذهب إلى منزله ، فيتناول المكنسة ويكنس ما يسد مداوس الأقدام من التراب والأنقاض ، ويعود توّاً إلى عمله يشبر شارع فليت طولا وعرضاً . حتى إذا دخل الليل ذهب إلى منزله فقضى الساعات يصلح ما أفسدته القنابل ، ويحمد الله أن لم تكن من تلك التى تَرفع سافل البيت وتخفض عاليه فى ثانية .

وفى رابع مرة أتاه الخبر بإصابة بيته ، فابتسم ونظر لزميله وقال : « وهو كذلك . لن أغيب طويلا . وسأكتب إلى هتلر هذه المرة خطابا أسأله فيه أن يغيّر حجم قنابله . فأنا أكره الروتين . ويبقى لى بصبر على طعام واحد » .

وهو إلى الآن ينتظر القنبلة التى تذهب بالبقية القليلة الباقية من بيته دفعة واحدة ، ولكنها لا تجىء .

ثلاثة توائم :

هى ثلاثة أسماء خرجت بهما أخبار الحرب من بطون الكتب التاريخية إلى كل فكر متثقف ذاكر . تلك هى : مدينة بيزا ؛ ثم برجها المائل الشهير ؛ ثم العلاّمة الرياضىّ الأشهر جاليليو ، وهو الذى زاد هذا البرج ذكراً سيبقى على الأيام ما بقى العلم والعلماء .

بيزا المدينة :

مدينة على نهر الأرنو بشمال إيطاليا ، وهى فى الغرب من فلورنسا ، وفى الجنوب الشرقى من جنوا . وقد ذكرنا هذين البلدين بالذات للخصومة القديمة ، خصومة القرون الوسطى ، التى كانت بينهما وبين بيزا ، حين كان الحكم فى إيطاليا يحكم الدوقات والأشراف .

وبيزا اليوم ليست بالبلد الكبير ، فسكانها لا يتجاوزون [illegible] نسمة ، وكل ما يعرف عنها الناس اليوم أن المسافر من روما إلى جنوا يغيّر عندها القطار طالباً لمدينة فلورنسا ، وأن السائحين يتوقفون عندها لرؤية آثارها . فهى قطعة من الماضى ، ولكنه الماضى العتيق الجميل .

وآثارها أربعة : حائطها وطولها ٦½ من الأميال ، وكتدرائيتها ، ومغطس التعميد فيها ، ثم برجها المائل ، وكلها مآثر لمدارس الفنّان ، وهى فى تاريخ الفن أولى مأثرة التى قامت فى إيطاليا فى القرون الوسطى ، أى هى الطليعة فى الفنون الإيطالية ، ومن بعدها تابع فن المعمار الإيطالى إلى الإحسان النادر طريقه المعروف . ومأثرة خامسة لهذا البلد يعيها كل عالم ، وكل طالب علم ، أنها مولد جاليليو .

ودارس تاريخ الشرق لا ينسى بيزا . فمن بيزا ، وهى جزء من دوقية تسكانى ، خرجت الجيوش فى القرن الميلادى الحادى عشر تدفع جيش العرب الذى أراد أن يغزو القارة الأوروبية من جزيرة سردينيا وجزيرة صقلية . وكان على رأس الجيش العربىّ قائد يسميه الإيطاليون

« موجيتو » ويسميه العرب مجاهداً . ومن بيزا ، عام ١٠٩٩ ميلادية ، خرجت الجيوش تحارب الشرق على أرض فلسطين ، في الحروب الصليبية الثانية . ومن هذه الحروب أفادت بيزا ، لاتصالها بالشرق ، كثيراً من علم وتجارة وثروة ، جعلها تتابع حملاتها على الشرق في القرن الثاني عشر ، فتهاجم العرب بأسطول ذي قوة عند الأندلس ، في جزر البليار .

والقرن الثاني عشر هو القرن الذي بلغت فيه بيزا أوج مجدها الفني ، فآثار الفن فيها تمت في هذا القرن ، وبأيدي رجالها .

البرج المائل :

وهو مستدير الشكل طويل ، كما وضعت أسطوانة فوق أختها . ويبلغ طوله نحو ٥٥ متراً ، أي نحواً من ١٤ دوراً من أدوار المنازل الحديثة . أما أدواره هو الذي تقسم إليها فثمانية ، يحيط كل دور منها أعمدة ثلاثون تحمل أقواساً ثلاثين ، إلا الدور الأرضي فأعمدته ١٥ ؛ وإلا الدور العلوي الذي تسكنه الأجراس فيحمل ١٢ عموداً .

والبرج كله من الرخام الأبيض .

وشهرة البرج في اثنتين : أنه مائل ، وما تقام الأبنية مائلة ، وما هي تقام لتميل ؛ وأنه في هذا البرج ، وفي أدواره على اختلاف علوها ، قام جاليليو بأبحاثه الشهيرة عن جاذبية الأرض .

أما عن ميل البرج فلا يعرف التاريخ عن سببه شيئاً وثيقاً . ولكنه إذا تحقق أن بانيه لم يكن رجلاً مخبولاً ، فلا يبقى إلا الزعم بأن الأرض من تحته مالت في ناحية فمال معها . ويزيد هذا الزعم صواباً أن أساس هذا البرج الطويل لا يغور في الأرض أكثر من ثلاثة أمتار وبعض المتر ، وأن ميله هذا يزيد على القرون . فرأس البرج كان قد انزاح في الاتجاه الأفقي عن محوره الرأسي ١٥½ قدماً في عام ١٨٢٩ . ولما قيس انزياحه عام ١٩١٠ كان ١٦½ قدماً ، أي أنه زاد قدماً أفقياً في نحو قرن .

أما عن الجاذبية وأبحاثها فقد أسقط جاليليو من فوق البرج أثقالاً من أجسام مختلفة ، أثبت بها أن هذه الأجسام الساقطة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، خفيفة كانت أو ثقيلة ، تصل إلى الأرض من علو واحد في زمن واحد . وتابع بعد ذلك أبحاثاً أثبت فيها علاقة ما بين سرعة السقوط وزمنه ومسافته ، كانت هي أساس علم الحركة ، والبشير بقوانينها التي نطق بها نيوتن من بعد ذلك .

جاليليو :

هو أول الفزيائيين ، أي علماء الفيزيق ، أو ما نسميه بالطبيعة . أولهم في العصر الحديث .

ولد بمدينة بيزا عام ١٥٦٤ ، ومات عام ١٦٤٢ ، أي أنه عاش ٧٨ عاماً . دخل جامعة بيزا في سن السابعة عشرة ، وفي سن الخامسة والعشرين عين أستاذاً للرياضة فيها . وأعلن كفره بتعاليم أرسطو ، وكانت إنجيل القوم في العلم والفلسفة بعد ذلك ، فتحرج من كفره في بيزا ، فغادرها إلى جامعة بدوا أستاذاً للرياضة فيها عام ١٥٩٢ . ولكن عادت جامعة بيزا فاستدعته إليها عام ١٦١٠ .

وقد بحث في الحركة وقوانينها ، وفي البندول وذبذبته . ولفت نظره إلى بحوث البندول ما لاحظه بكتدرائية بيزا وهو في سن التاسعة عشرة من ذبذبة قناديلها . فقد وقع عندئذ في نفسه أن القناديل ذات الأطوال الواحدة تقطع الذبذبة الواحدة في زمن واحد مهما كان ثقل البندول .

وبحث في السماء وأجرامها وفي دوران الأرض . وفي هذا اصطدم بالكنيسة . وبعد المحاكمة ، والحكم بكفره ، اضطرته محكمة التفتيش ، وهو الشيخ العاجز ، إلى أن يركع ويقول علناً ببطلان عقيدته في أجرام السماء ، ودوران الأرض . فركع وأعلن بطلان كل ذلك . وعندما وقف ضرب الأرض بقدمه وتمتم من بين أضراسه : ولكنها برغم ذلك تدور .

وزجوا به في السجن . ولكن لم يلبث فيه أياماً حتى استبدل سجنه بالنفي . ثم عاد إلى بيته وقضى أيامه الأخيرة

في بحوث علم الميكانيكا والقذائف . ثم جاءه الصمم ، وجاء العمى ، وجاءه اضطراب السلام في بيته ، ومسه الضر شديداً قبل أن يفارق هذه الدنيا .

من نصف قرن :

« شلل الأطفال » اسم لمرض يعترى نخاع الظهر فيترك الجسم مشلولا ثلثه أو ثلثاه أو أكثر من ذلك أو أقل ، تبعا لدرجة ذهاب المرض عُلُوّاً في النخاع . وهو يصيب الأطفال والرجال ، وإنما غلب على الأطفال فسمى باسمهم .

فمن نصف قرن بينا الطفلة الصغيرة فلورنس ، وعمرها اثنتا عشرة سنة ، تسير في الصباح إلى مدرستها ، أحست رجليها تثقل ، ثم عجزتا عن السير فقعدت . فحُملت إلى المستشفى . واليوم ، في نفس المستشفى ، قد احتفلت واحتفلوا بعيد ميلادها الثاني والستين .

وهي لاتستطيع أن تحرك من جسمها غير يدها اليسرى ، وبهذه اليد برعت في فن التطريز ، فطرزت الكثير من أغطية الموائد ، تعمل فيها بيدها الصالحة ، وتسند القماش على سائر جسمها . وفي بطء طويل وجَلَد كثير تبلغ غايتها .

ومنذ شبّت الحرب أخذت تجدّ في عملها وتبيع من صناعتها الكثير فتهدى ثمنه اتحادَ رجال الأسطول التجاري للترفيه عنهم ، فهي تُعجَب بهم كثيراً . قالت في ذلك : إنها طريقتي المتواضعة في إسداء الخير القليل إلى أبطالنا .

خمسون عاما في مستشفى ! لست أدرى أيهما أمتدح ، هذه النفس الرياضية المخذولة التي لا تريد أن تمرض ولا أن تُخذَل ، أم ذاك النظام الإنساني الاجتماعي البديع ، في تلك المدينة في غرب إنجلترا من جنوب ، مدينة باث ، ذاك النظام الذي يأبى أن يُحمِّل المرضى حملا إلى الطريق قبل شفاء ، ولو تطلب هذا الشفاء قرنا أو بعض قرن .

جدة ميكانيكية :

أي نعم جدّة ، لها بعل ، ولها أبناء ، ولهم أبناء ، كلهم في أسطول الولايات أو في جيشها يؤدون واجبهم في هذه الحرب . والجدّة تؤدى هي الأخرى واجبها . ولكن أين ؟ في مخبز ؟ في منسل ؟ في مطعم ؟ لا . ولكن في جراج حربيّ ، تؤدى فيه ما كان يؤديه الرجل الميكانيكي من إصلاح السيارات . وتدخل الجراج فتجد هذه الأم التي أنسَلت للدنيا جيلين قد ارتمت على ظهرها على الأرض ، في سروالها الأزرق ، بين عجل السيارة ، وفي يدها مفك مسمار أو مفتاح صامولة .

وامرأة أخرى ، كانت قبل الحرب تنعم بإدارة منزل كبير ، فإذا بها اليوم تنعم بوظيفة مفتشة في مصنع يخرج الآلات الحربية الدقيقة .

وهكذا دواليك .

ملايين من النساء بالولايات حلّت محلّ الرجال في الصناعات ، فتمكنت من هذا الفيض الذي لا يفتر من عتاد الحرب .

ليت شعرى ما يكون أثر هذا في تلك المجتمعات بعد الحرب ؟ إنها ثورة نسائية ستكون ، ما كان ليبلغها ألف كاتب وكاتب لو شحذوا أقلامهم وشهروها قرنا من الزمان .

ونحن هنا سنرقب هذه الثورة من بعيد ونقول : فساد ورب الكعبة !

« شو » يستعد للموت :

جورج برناردشو ، أشهر مؤلفي الإنجليز وأدبائهم لأحقاب خلت أتم عامه الثامن والثمانين ، واحتفل بتمامه في الأسبوع الماضي في السادس والعشرين من يوليو .

وقد حرص ألا يجيء هذا اليوم حتى يكون قد أتم كتابة كتاب جديد ، ورواية جديدة ، قال إنهما آخر

صحيفة الفكر :

ألف ليلة وليلة

رسالة الدكتورة سهير القلماوى

« ... ثم تأتي البراعة هذه الرسالة من أنها بعد هذا كله دليل دقيق للذين يريدون أن يقرأوا ألف ليلة وليلة قراءة تعتمد على التروية والتفكير . فهى قد ألفت أشتاته ، وجمعت متفرقه ، ولاءمت بين أحاديثه المتنافرة المتنافرة . فإذا أنت تعرف أين تجد القصص الذى يتجه اتجاهاً دينياً ، والذى يتجه اتجاهاً خلقياً ، والذى يذهب مذهب التاريخ ، والذى يعنى بالنقد الاجتماعى ؛ إلى غير ذلك من الموضوعات التى صورها القصاص عن عمد مرة ، وعن غير عمد فى كثير من الأحيان ... »

طه حسين

هذه الفقرات التى اقتطفناها من مقدمة الأستاذ الدكتور طه حسين بك ، لرسالة الدكتورة سهير القلماوى عن ألف ليلة وليلة ، تشير إلى أهم عمل قامت به المؤلفة فى الحقيقة ، فقد كان هذا هو العمل الأكاديمى فى إنشائها ، وهو الجهد الرئيسى الذى بذلته فيها .

وقبل أن نفصل القول فى قيمة هذا العمل أو ذاك مما قامت به المؤلفة لإعداد رسالة الدكتوراه ، نذكر — على الهامش — ظاهرة واضحة يدركها قارئ الكتاب لأول وهلة . فالمؤلفة « تلميذة الدكتور طه حسين » ، كما قالت فى إهدائها ، وإن طابع الأستاذ ليبدو عليها واضحاً قوياً ، وإنه ليبدو أن الدكتور قوى الأثر فى تلاميذه إلى حد بعيد .

ولكن من الحق أن نقول إن سهير « طليعة نظيفة » لا كتلك الطليعات الأخرى « الشائهة » . وإنها ربما تجاوزت مرتبة التلميذة إلى مرتبة « المريدة » التى يجىء تأثرها إحساساً باطنياً لا تقليداً ظاهرياً . ففى أسلوبها صفاء ، وفى استعراضها سلاسة ، وإن تكن لا تزال ينقصها تمكن الأستاذية ، وقوة اللمسات التى تدل على أنها تملك الموضوع ولا يملكها الموضوع .

والاستعراض هو أقوى ملكاتها ، فحينما استعرضت أقوال المستشرقين عن ألف ليلة وليلة ، أو الترجمات التى قامت بها الليالى ، أو أثر الليالى فى الآداب الغربية ، أو الموضوعات التى طرقها القصاص — والتى أشير إليها فى المقدمة — فهى حينئذ تستخدم أقوى ملكاتها ، وهى حينئذ تروق وتعجب ، وتحس قارئها بالتنسيق الجميل ، والتعبير الرشيق ، والأسلوب المنسق . وحينما تجاوزت هذه المنطقة إلى التعليل والاستنباط ، فهى حينئذ فى غير ميدانها ، وهى تلمس الموضوع برفق ، وتدعه معجلة ، أو لا تستوفى النتائج التى تتيحها لها المقدمات . وعلى العموم فهى لا تبلغ هنا مداها الذى تبلغه فى الاستعراض والتنسيق .

* * *

والآن ننظر فى الجهد الذى قامت به المؤلفة فى إنشاء رسالتها .

تقع هذه الرسالة فى ثلثمائة وعشرين صفحة من القطع الكبير نسبياً ؛ وهى مقسمة إلى ثلاثة كتب : فأما الكتاب الأول فقد استعرضت فيه أولا ما قام به

ما يكتب . وقد فعل . وقال إنه إنما فعل هذا لأنه لن يحيا من عامه التاسع والثمانين غير ثلاثة أيام .

ورتب « شو » أموره استعداداً للنومة الأخيرة التى ليس لها على هذه الأرض من صباح . ومما فعله أنه وهب بيته للأمة البريطانية بما فيه من أثاث ، وما فيه من كتب ، وكذلك بعض المخطوط الباقى من رواياته المطبوعة .

وعلى الرغم من سنه لم تفارقه النكتة التى صحبته دائماً أبداً . كتب كتابه الأخير عن الاشتراكية ، فسماه : « ألف باء الاشتراكية » . فلما سئل فى ذلك قال : سميته هكذا لأن الناس كلهم قد عرفوا واوها وياءها .

الجرنوسى

الشرقيون من البحوث القليلة حول « ألف ليلة وليلة » ؛ واستعرضت فيه ثانيا سجلا عن الترجمات المختلفة التي قام بها الغربيون لليالي ، وما قدموا به لها من بحوث في تاريخها أو موضوعها ؛ واستعرضت فيه ثالثا تلك الأبحاث العامة التي قام بها المستشرقون عن الليالي ، أو عن قصص منها خاصة ؛ واستعرضت فيه رابعا ما كان لليالي وما نشر حولها من البحوث من أثر في الأدب الغربي واتجاهاته .

وأما الكتاب الثاني فقد تحدثت فيه عن « تأليف الكتاب » ، فذكرت أن قلة النسخ التي وصلت إلى أيدينا من كتاب ألف ليلة وليلة ، وعدم استطاعتنا العثور على جميع النسخ التي وجدت له في عصور متفاوتة ، لا يجعلنا نستطيع الجزم بتاريخ الكتاب ونشأته وتطوره حتى صار إلى ما بين أيدينا اليوم منه . ولكن النظر في مادة الكتاب نفسها قد تعين على شيء من هذا لا يصل إلى مرتبة اليقين .

وقد افترضت أن نواة الكتاب [illegible] ثم توسع القصاص فزادوا عليها وتوسعوا فيها ، وظلوا يضيفون إليه بطرائق مختلفة حتى صار إلى وضعه الأخير ؛ وأن هناك عوامل أثرت فيه ، أهمها الروح الشعبية التي سيطرت عليه سيطرة قوية ، وإن كان تزمّت العلماء وعوامل السياسة قد حدّت من هذه الروح فجملته يخلو من بعض الموضوعات التي تشيع عادة في الآداب الشعبية : كالحديث عن الحياة الأخرى ، وكعفريت البيت المشهور في مصر ، وكالأخذ بالثأر . كما أن الروح الإسلامية سيطرت على الكتاب كله بوجه عام . وكذلك تركت فيه الروح المصرية أثرها الواضح .

وأما الكتاب الثالث ، فهو الكتاب الرئيسي في الرسالة ، وهو الذي درست فيه موضوعات الليالي و « صنفتها » إلى الموضوعات التالية : « الخوارق في ألف ليلة وليلة ، الموضوعات الدينية في الليالي ، الموضوعات الخلقية في الليالي ، موضوعات الحيوان في الليالي ، الحياة الاجتماعية في الليالي ، الموضوعات التاريخية في الليالي ، الموضوعات التعليمية في الليالي ، المرأة في ألف ليلة وليلة » .

وما من شك في أن مجهوداً عظيما بذل في هذا التصنيف الذي يحتاج إلى الدقة والصبر واليقظة . وما من شك في أن استعراض الموضوعات في الليالي كان استعراضاً مشوّقاً جداً ؛ وأن الحكم الفني على عمل القصاص في ثنايا هذا الاستعراض ، وعلى مواضع إجادتهم ومواضع تقصيرهم ، كان كذلك جيداً ؛ وأن هذا العمل كما قال الدكتور طه حسين بك : « دليل دقيق للذين يريدون أن يقرءوا ألف ليلة وليلة قراءة تعتمد على الروية والتفكير » .

ولكن هل نستطيع أن نسم هذا الجهد كله بميسم « الشخصية المبتكرة » التي « تشترطها نظم الجامعة في رسائل الدكتوراه » كما جاء في المقدمة ؟

نحن مضطرون اضطراراً لأن نخالف الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك في هذا . فالجهد الذي بذل كبير ، ولكنه غير مبتكر . ونريد أن نعرّف « الابتكار » الذي نعنيه ، والذي ننتظر أن نراه في رسائل « الدكتوراه » الجامعية ، فهو الذي يبدو فيه نهج المؤلف الخاص لا الذي ينسج على منوال قائم ، أو يتوسع فيه .

وتقسيم الليالي إلى موضوعات ليس عملا مبتكرا — وهذا من الناحية الشكلية — وأما طريقة التقسيم واستعراض الموضوعات في مختلف القصص ، فهي رهينة بجهد « التصنيف » والتبويب ، لا جهد الابتكار والابتداع . ولم يبد في أثناء ذلك من الدكتورة سهير ، ما يدل على أنها تنفرد في هذا دون أي طالب يستطيع أن يصبر أياما وليالي على « تفتيط » الموضوعات . نعم إن طريقتها في الاستعراض جميلة ، ولكن هذا شيء ، والشخصية المبتكرة شيء آخر فيما أعتقد .

وقد يكون منشأ هذا الخلاف أنني أغالي في ما أطلبه

من رسائل الدكتوراه ، وأن الجامعة لا تريد هذه التفاهة ؛ فيكون الخلاف إذن لا على رسالة الدكتورة سهير ، ولكن على مبدأ « الابتكار » في رسائل الدكتوراه .

***

وقد ذكرت أن للدكتورة سهير ميزتها في صفاء الأسلوب وجمال الاستعراض ، وأنه ينقصها تمكن الأستاذية وقوة اللمسات التي تدل على أنها تملك الموضوع . فهي حينا كان عملها الاستعراض ظهرت في ميدانها الأصيل ، وحينا حاولت التعليل والاستنتاج لم تبلغ إلى مداها الذي تبلغه في الاستعراض ، إذ تمس الموضوع برفق وتدعه معجلة ؛ فالآن أذكر بعض الأمثلة على هذه الظاهرة .

لا يستطيع قارئ الليالي ، بعد أن يفرغ منها ، إلا أن يحس إحساساً قوياً أن هذه القصص هي « أحلام الحرمان » ، وذلك هو مفتاحها الأول الذي يصلح لتفسير أشياء كثيرة فيها ، إن لم يصلح لتفسير كل ما فيها ولم يغب عن الدكتورة سهير — في لطف إحساسها — أن تمس ذلك ؛ ولكنها لمسته في خفة ، ولمسته في ناحية دون ناحية ، ولم تحاول أن تتخذه مفتاحها الأصيل لتفسير الليالي .

لمست في ثنايا الاستعراض كثرة ما تصوره القصص من ألوان الطعام والشراب ، فقالت : إن في ذلك إشباعاً للجوع الذي يسيطر على الطبقة التي استمعت للكتاب ، وهي طبقة الفقراء . ولمست في ثنايا الاستعراض كذلك كثرة ما تصوره القصص من الكنوز التي تفتح فجاءة للفقراء فينقلبون أغنياء ، فقالت : إن في ذلك تعويضاً من الفقر الذي يسيطر على المستمعين والقصاص . . . وهذا جميل .

ولكنها لو خطت وراء ذلك كله خطوة حاسمة ، ولمست للموضوع كله لمسة قوية ، لرأت أن « أحلام الحرمان » تتعدى الطعام والمال ، فهي أحلام الشبع ، وأحلام الغنى ، وأحلام السلطة ، وأحلام الشهوة ، وأحلام الراحة ؛ وكما وجدت في أحلام الجوع ما يفسر لها كثرة الطعام والشراب ، وفي أحلام الغنى ما يفسر لها الكنوز ؛ فإنها كانت واجدة في أحلام السلطة ما يفسر لها كثرة الملوك وأبناء الملوك الذين أصبحوا مشردين ، وكثرة الأفراد العاديين الذين يصبحون ملوكا وحكاما ، أو يتغلبون على الملوك والحكام ، وقد يتكبرون عليهم كما صنع « جودر » بعد أن ملك القوة والمال ؛ ولوجدت في أحلام الشهوة ما يفسر لها الفحش الذي حشيت به الليالي ، وهذه الأحلام التي كان زينة جواريها « سوق الرقيق » ، وما يتخيله الفقراء من متعة الأغنياء بالجوارى المعروضات ؛ ولوجدت في أحلام الراحة ما يفسر لها « جراب جودر » وأمثاله الذي يطلب منه الطعام فيخرجه في لحظة مهيأ بلا تعب ، وما يفسر لها الحصان الطائر ، والعفاريت التي تقطع البحار والجواء ، والإنسان على ظهرها محمول . وربما يضاف إلى أحلام الراحة في تفسير مثل هذه القصص أحلام الطفولة التي تتصور المعجزات في عالم الواقع ، لأن هذا يرضى ما فيها من سذاجة في الخيال .

ولو استخدمت هذا المفتاح لوجدت تفسيرات لأشياء كثيرة صادفتها في الليالي ، فتركتها بدون تفسير ، أو فسرتها تفسيراً غير حاسم ؛ مثال ذلك : خلو الكتاب من إشعاعات السيرة النبوية ، مع أنه مطبوع بالروح الإسلامية ، وخلوه تقريباً من التطلع إلى معرفة الغيب . . . فمثل هذه الموضوعات لا تجد لها مكاناً بين « أحلام الحرمان » التي تسيطر على جمهور الليالي المشغول بالحاضر وبمطالب الجسد عن كل ما عداها .

ثم لقد كان هناك موضع للمسة قوية أخرى لم تشر

إليها . فهناك ظاهرة واضحة وضوحاً قوياً ، فأحلام الحرمان هذه لم تتجاوز الحاضر ، ولم تتجاوز المطالب المادية كما أسلفت ، وليس فيها حلم روحي واحد ، ولا تطلع إنساني راق ؛ ولهذا دلالة على روح الفترة التي ألفت فيها الليالي ، أو معظمها ، وعلى روح الجمهور الذي استمع لليالي . فهي فترة انحطاط روحي لا شك فيه ، وهو جمهور لم يطرق عالمه مثل واحد من الأمثلة العليا ، إما لفقره ، أو للاستبداد الجاثم عليه ، أو للجهل الفاشي فيه ، أو لهذه الأسباب جميعاً .

نعم إن قصة « بلوقيا » تشير إلى تطلع روحي ، وقصة « عمر النعمان » تشير إلى بطولة حربية . ونعم إنه كان لهاتين القصتين صـدى في الكتاب ، ولا سيما قصة « بلوقيا » ، ولكن قصـة « عمر النعمان » غريبة في الكتاب كله . أما قصة « بلوقيا » فإنها في الغالب أصل فارسي ، متأثر — كما نعتقد — بأصل مصري ، في قصة « أموزا » المصرية القديمة كثير من [illegible] بل ربما كان لهذه القصـة أثر في [illegible] سليمان ، وكان ينبغي لبحث عن ألف ليلة وليلة من كاتبة مصرية أن تبرز هذا الأثر المصري العريق .

ومثل آخر لاضطراب التعليل ، فهي قد افترضت في موضع أن جمهور الليالي كان من الفقراء ، وافترضت في موضع آخر أن هذا الجمهور كان من التجار ، وذلك لـكي تعلل وجود القصص التعليمي المعقد الملىء بالمعلومات الجافة ، ولـكي تعلل كذلك كثرة ذكر التجار في الليالي ، والذي لا شك فيه هو صحة الفرض الأول . أما تعليل القصص التعليمي فسهل ، وقد تنبهت إليه هي في موضع ثالث ، وهو أنه لم يمش على ألسنة القصاص وإنما ضم عند نسخ الكتاب ؛ وأما تعليل ذكر التجار فسهل كذلك ، لأنها الطبقة التي كان يحلم بهـا الفقراء ، وهي أمامهم في كل آن .

ولهذين المثالين أشباه كثيرة في الـكتاب ، وإن كان المؤلفة — بجوار هـذا — كثير من اللفتات الطيبة ؛ ولـكنها لفتات ليست حاسمة ، ولمسات ليست قوية ، كما ينبغي لرسالة دكتوراه .

سيد قطب

شاعر ..

مرّ بالسامر محزوناً وحيّياً من بعيـد
لا رنين السعد في الصوت ، ولا لحن نشيد
صوته مثل الصدى الحائر في أعماق بيـد
وعلى سيمائه الأين ، وإعياء الطريد

قيل : هـذا شاعر طال نواحه
قلبه المكلوم لاتؤسى جراحـه

كم تغنى في ليله الغابر باللحن الرفيع
وأناشيده تغنتها قمارىّ الربيع
لم يعدْ يملك إلا صور الحب الصريع
في فؤاد لم يعدْ غير جراح ونجيع

لاعنا الشاعر يعلو ، لا مراحه
قلبه المكلوم لاتؤسى جراحـه

وقف الشاعر حيناً ، وتوارى بعد حين
هو في واد من الصمت قصىّ وحزين
قد سرى يرزح بالآلام يخطو في سكون
وتبدّى وجهه الناحل جياش الحنين

وجـه سار لم يلحْ بعدُ صباحه
قلبه الـمكلوم لا تؤسى جراحـه

بغداد مذكور فرج مذكور

من القلب

كلما عبق ثراك   يلهب القلب لقاك
أنا قبّلتُ الأمانى   عند ما قبلتُ فاك
ورضا دنياى عنى   كان فى يوم رضاك
إن للقلب عيوناً   مثل عينىّ تراك
غير أن القلب لا تنـ   ـظر عيناه سواك
عشتَ فيه كالسويدا   ء احتواها واحتواك

***

أنا طير الأيك لا يد   رى سوى الطير لحونى
أدمى شدوى وإن لم   تبك بالدمع عيونى
قد بكى الليل كما أبـ   ـكى بصمت وسكون
غير أصداء صداح   سال من دمع الجفون
ذوبت روحى فى لحـ   ـنى ولحنى فى شجونى

***

أترى تسمعنى فى الليـ   ـل والناس نيام
من سهرتُ الليل منها   وتعلمت الغرام
شاعر أسهرت نجمى   فى حياة من ظلام
صورة تنطق بالفـ   ـنّ ولا تدرى الكلام
أنا من أبصر جدّ الـ   ـعيش كالهزل فنام
حالماً والمرح الدنـ   ـيا لتمضى بسلام
خلّنا من ضجة الكو   ن ومن مكر الأنام
لذة الدنيا هى اثـ   ـنان فنعم وابتسام
قصة قد مثلتها الـ   ـناس والموت الختام
فسواء عشت عاماً   بينها أم ألف عام
حسب نفسى أن أرى نفـ   ـسىَ حياً فى المنام

***

خلّنا من ذكر أيا   م كأحلام السبات
عمرها ولّى وعاشت   فى جحيم الذكريات
أنا فيها مت كالتا   ريخ حياً فى الرواة
خلّنا منها وهات   لى الكئوس المترعات
إن يوماً يسعد النفـ   ـس بأيام الحياة
رب صوت لحياة   وحياةٍ لممات

***

ذا كتاب الكون لا نبـ   ـصر به شيئاً جديداً
كل ما أبداه النا   س على الناس أعيدا
صورة لن تنقص الأيـ   ـام فيها أو تزيدا
ومن الأحياء من يحـ   ـيا ولا يدرى الوجودا
عاش كالأنعام لا يبـ   ـغى سوى القوت سعيدا
والذى يشقى هو الفذّ   الذى يبغى الخلودا

***

شدّ ما ألقاه من قلبى   وقلبى منك باقِ
إن من يهوى جمال الجـ   ـسم لم يعشقه حقاً
يعشق الأيام بالحسـ   ـن ومعنى الحسن يبقى
وأنا من عشقك فى رو   حك لا حسنك عشقا
هو كالخمرة تحلو   كلما تزداد عتقا
وصبا الفجر رطيباً   كلما هُيّج رقّا
ما هو الحب إذا لم   يخلق الإنسان خلقا

***

احمنى فى الليل مزمو   رى على الفردوس يسرى
قد تهدّت به الحو   ر وغنيت بشعرى
ذلك التنزيل موسيـ   ـقاه لم تخلق لغيرى
خالد فى عالم الأحـ   ـزان من أيام عمرى
فبنانى فيه أيا   مى ولا ينصف دهرى
عجزت أزوانهم عنـ   ـه فأغنانى بفقرى
خلّه يحيا بقيا   وأنا أحيا بقبرى

كامل أمين محمد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٩ شارع الكرداسى — عابدين — القاهرة